القسم الثالث

مع بعض الأدباء الأندلسيين

- عبد الرحمن الداخل ، صقر قريش .
- ابن هانىء الأندلسى ، الشاعر الداعية القتيل .
- ابن دراج ، شاعر العاطفة الأسرية والأصالة الأندلسية .
- ابن زيدون ، الشاعر الوزير العاشق .
- المعتمد بن عباد ، الشاعر الملك السجين .
- امية ابن أبى الصلت الأندلسى ، العبقرية العلمية والموهبة الأدبية .

obeikandl.com

obeikandl.com

عبد الرحمن الداخل

صقر قريش

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، سليل الأمويين حكام الإمبراطورية الإسلامية العظيمة بعد عهد الراشدين ، ومؤسس الدولة الأموية فى الأندلس ، بعد أن سقطت فى المشرق دولة آبائه على أيدى العباسيين .

ولد عبد الرحمن فى إحدى قرى دمشق سنة١١٣هـ . ومات أبوه وتركه صغيرا، فكلفه جـده هشام ، ونشأه تنشئة حسنة يبدو أن الفروسية والأدب كانا من أهم دعائمها . . ولمـا كان فى نحو العشرين من عمره ، حلت النكبة ببنى أمية وسقطت دولتهم ، بعد هزيمة جيوش آخر أمرائهم مروان بن محمد فى موقعة الزاب ، أمام جيوش بنى العباس .. وكان ماهو معروف من مطاردة العباسيين لبقايا خصومهم الأمويين والتنكيل بهم ؛ فاضطر عبد الرحمن إلى التخفى هو وأهله وولده بإحدى القرى على شط الفرات حينا ، ثم اكتشف العباسيون أمرة ، فأفلت من جنودهم وألقى بنفسه فى النهر وعبره سابحاً حتى نجا من سيوفهم ، ثم واصل رحلته حتى وصل إفريقيا ، تمهيداً لدخول الأندلس .

وفى هذه المغامرة الأولى التى أفلت فيها من قبضة مطاردية يقول عبد الرحمن :

« وإنى لجالس يوماً فى قرية على شط الفرات ، فى ظلمة بيت تواريت فيه لرمد كان بى ، وابنى سليمان يلعب أمامى ، إذ دخل الصبى فزعاً باكياً

• نشر هذا المقال فى مجلة الهلال ، عدد مارس ١٩٧٢ .

فأهوى إلى حجرى ، فجعلت أدفعه لما كان بى ، ويأبى إلا التعلق بى ، وهو دهش يقول مايقول الصبيان عند الفزع .

فخرجت لأنظر ، فإذا بالروع قد نزل بالقرية ، ونظرت فإذا بالرايات السود (رايات العباسيين) عليها منحطة . وأخ لى حدث السن كان معى يشتد هارباً ، ويقول لى : « النجاة ياأخى ، فهذه رايات المسوِّدة ! » فضربت بيدى إلى دنانير تناولتها ، ونجوت بنفسى والصبى أخى معى . وأعلمت أخواتى متجهى ، وأمرتهن أن يُلحقنى مولاى بدراً . وخرجت فكمنت فى موضع ناء عن القرية ، فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار فلم تجد أثراً .

« ومضيت ولحقنى بدر ، فأتيت رجلا من معارفى بشط الفرات ، وأمرته أن يبتاع لى دواب وما يصلح لسفرى ، فدل على عبدُ سوء كان له ، فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا ، فسبحت حاثاً لنفسى ، وسبح أخى ، فنادانا القوم من الشط : « ارجعا لا بأس عليكما » . فلما قطعت نصف الفرات ، قصر أخى ، فالتفت إليه لأقوى من قلبه ، وإذا هو قد أصغى إليهم وهم يخدعونه عن نفسه ، فناديته : « نُقتل ياأخى ، إلىّ إلىّ » . وإذا هو قد اغتر بأمانهم وخشى الغرق ، فاستعجل الانقلاب إليهم . وقطعت أنا الفرات . . ثم قدموا الصبى أخى الذى صار إليهم بالأمان ، فضربوا عنقه ، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه ، فاحتملت فيه ثكلا ملأنى مخافة . ومضيت وجهتى أحسب أنى طائر ، فلجأت إلى غيضة فتواريت فيها حتى انقطع الطلب عنى ، ثم خرجت هارباً أروم المغرب ، حتى وصلت إلى إفريقية ، وهناك لحق بى مولاى بدر» .

وبعد نحو خمس سنوات من التخفى والسفر والتدبير والالتجاء إلى أخواله فى قبيلة نفزاوه بإفريقية ، تسلل عبد الرحمن إلى الأندلس ، ونزل بإقليم البيرة .

بعد أن رست السفينة التى عبرت به من المغرب على ثغر المنكب فى غرة ربيع الأول سنة ١٣٨ هـ .

وجمع الموالين للأمويين ، ثم نازل بمن معه من الجند يوسف الفهرى والى الأندلس حينذاك ، وخاتمة أربعة وعشرين واليا تتابعوا على حكم الأندلس فى الفترة التى أعقبت الفتح الإسلامى إلى قدوم عبد الرحمن ، وهى فترة لاتكاد تبلغ نصف القرن ، مما يدل على عدم الاستقرار واحتياج الحكم الإسلامى فى الأندلس إلى رجل من نوع جديد .

وقد قيض الله للأندلس هذا الرجل ، ممثلاً فى عبد الرحمن الداخل ، الذى هزم يوسف الفهرى ، وقضى نهائياً على عهد القلق وعدم الاستقرار وتتابع الولاة ، الذى بدأ من أعقاب إتمام فتح الأندلس على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير سنه ٩٣ هـ وانتهى بمقدم الداخل وقيامه بالأمر وتأسيسه لدولة بنى أمية فى الأندلس سنة ١٣٨ هـ .

وكان عبد الرحمن فى الخامسة والعشرين من عمره حين تولى أمر الأندلس . وكانت أمامه مشكلات بالغة التعقيد ، تحتاج إلى خبرة سياسية وقدرة حربية وعقلية غير عادية ، لكى تنجو بالبلاد من أخطار الانقسام فى الداخل ، واحتمال الغزو من الخارج ، ولكى تقيم لبنى أمية فى المغرب ما يعوضهم دولتهم التى فقدوها بالمشرق ، وأخيراً لكى تجعل من العاصمة الأندلسية قرطبة ، مركزاً حضارياً ينافس العاصمة العباسية بغداد .

ومن هنا عمل عبد الرحمن الداخل من أول يوم فى إمارته — وطيلة مدة تلك الإمارة التى بلغت ثلاثة وثلاثين عاماً — فى ميادين مختلفة ، أهمها الميدان السياسى والميدان الحربى والميدان العمرانى أو الحضارى .

وقد حاول فى الميدان السياسى أن يوحد الأندلس ، ويقضى على بقايا

العنصرية التى عانت منها الأندلس من قبل ، حيث كانت هناك منازعات بين المسلمين الوافدين من الجزيرة العربية وإخوانهم القادمين من إفريقيا ، كما كانت هناك منافسات بين العرب العدنانيين الشماليين . وأشقائهم القحطانيين الجنوبيين ، وكانت تلك المنازعات والمنافسات تهدد الوجود الإسلامى فى الأندلس بخطر الانهيار .

وبذل عبد الرحمن الداخل فى سبيل توحيد المجتمع الأندلسى جهوداً تستحق كل تقدير ، فقضى على كل من تحدثه نفسه بشق عصا الوحدة ، وقاوم الزعامات القبلية التى كانت تؤجج نار العنصرية ، وأحدث توازناً فى ذلك المجتمع المولد المكون أساساً من عناصر عربية ، فقلل من شأن الأرستقراطية العربية ، وضم إلى أعوانه عدداً من ذوى الأصول غير العربية .

وكان فى سياسته على كثير من الصرامة والحزم والقسوة حين تقضى الضرورة حتى لقد أوقع عقوبته بعدد من الأعوان والأقربين ، فولاه بدر ، وكبعض أبناء أسرته كل ذلك فى سبيل تحقيق أهدافه وإنجاح سياسته .

أما فى الميدان الحربى فقد صال وجال ، فسير الجيوش وقاد الحملات للقضاء على الفتن الداخلية . ولتأمين الأندلس من القوى الأجنبية . فقد كان بعض الحكام أو الرؤساء يطمعون فى الاستقلال ببعض أقاليم الأندلس ، أو يحاولون الكيد للأمير الأموى وخلق المتاعب له والثورة عليه . كما كان مسيحيو الدويلات الإسبانية الشمالية التى بدأ تكوينها فى أعقاب الفتح الإسلامى فى أطراف شبه الجزيرة الأندلسية ، يهددون دائماً حدود الأندلس الإسلامية ويمثلون خطراً يحتاج إلى قمع . . ثم كان الفرنج وراء جبال البرانس يهددون كذلك حدود الأندلس ، ويدخلون أحياناً أطرافاً فى التآمر ضد أميرها .

ومن هنا كان عبد الرحمن الداخل دائم التحرك بجيوشه ، مرة لإخماد حركة

معادية فى داخل الأندلس بها زعيم مناوئ . وتارة لتأمين حدود البلاد فى الشمال من خطر جيش إسبانى متحفز ، وأحياناً لرد عدوان ينذر باجتياح الأندلس على يد ملك أوربى متحرش .

وقداستطاع الداخل أن يحقق أعظم الانتصارات على كل هؤلاء الخصوم . فنهضت جيوشه على كل ثائر ومتمرد . وأمنت قواته حدود البلاد بإضعاف شوكة الدويلات الناشئة فى الشمال لمقاومة الوجود الإسلامى فى الأندلس . كذلك الحق جنوده هزيمة منكرة بجيش الإمبراطور « شرلمان » ، الذى حاول الاستيلاء على سرقسطة فى الشمال الشرقى للأندلس ولكنه فشل . وفى أثناء انسحابه انقض على جيشه فى ممر « رونسفال » جند عبد الرحمن الداخل فقتلوا كثيراً من جنود « شرلمان » ، وكان من بينهم القائد « رولان » الشهير .

وأما فى الميدان العمرانى والحضارى ، فقد قام الداخل بكثير من الأعمال التى تستحق الإجلال . ومن تلك الأعمال : تأسيس مسجد قرطبة الجامع ، الذى كان إنشاؤه إنشاء أول جامعة أندلسية ، بالإضافة إلى قيمته الفنية المعمارية . ومن تلك الأعمال أيضاً إنشاء ضاحية الرصافة ، التى كانت مقراً للإمارة بالشمال الغربى لقرطبة . ثم إنشاء سور للعاصمة الأندلسية قرطبة . وجلب أنواع من المزروعات المشرقية إلى الأندلس ، وتجميل المدن بكثير من العمائر والمنشئات والحدائق ومظاهر الحضارة .

وكان من أهم جهود عبد الرحمن الحضارية : استقدام عدد من المغنيات والموسيقيات المشرقيات ، وتأسيس دار لهن بالقصر الأميرى ، عرفت بدار المدنيات ، لأن هؤلاء الفنانات كن من المدينة التى اشتهرت حينذاك بفنون الموسيقى والغناء .

وكان عبد الرحمن — بعد ذلك — شاعراً مجيداً وناثراً بليغاً . وكان شعره —

بصفة خاصة – يصوره بجوانبه المختلفة ، كإنسان وكسياسى وكمحارب وكرجل حضارة وعمران .

فمن شعره الذى يصوره بإنسانيته التى تحس الاغتراب ، وتحن إلى موطن النشأة، وتستشعر المشاركة الوجدانية مع الأشياء ، قوله عن نخلة رآها بالرصافة :

تبدَّتْ لنا وسْط الرصافة نخلةٌ ... تناءت بأرض الغرب عن وطن النخلِ
فقلتُ شبيهى فى التغرب والنوى ... وطول التنائى عن بَنِى وعن أهلى
نشأت بأرض أنتِ فيها غريبة ... فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن فى المنتأى الذى ... يسح ويستمرى السماكينِ بالوَبلْ

ومن هذا الشعر الإنسانى أيضاً ، قول عبد الرحمن فى حنينه إلى المشرق :

أيها الراكب الميمم أرضى ... أقرِ منْ بعضىَ السلام لبعضى
إن جسمى كما تراه بأرض ... وفؤادى ومالكيه بأرض
قُدر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البينُ عن جفونىَ غمضى
قد قضى الله بالبعاد علينا ... فعسى باقترابنا سوف يقضى

ومن شعره الذى يصور جانبه السياسى الحربى . قوله وقد حضه بعض مرافقيه مرة على صيد غرانيق وقعت إلى جانب معسكره فى إحدى حملاته الحربية :

دعنى وصيد وقْعِ الغرانقِ (١)
فإن همى فى اصطياد المارق
فى نفق إن كان أو فى حالق

(١) الغرانق : جمع غرنوق وهو طائر مائى ، أو هو الكركى .

إذا التظت هواجـــر الطرائـــــق
كان لفاعى ظـــل بند خـــا فـــق
غنيتُ عن روض وقصـــر شاهـــق
بالقفـــر والإيطانِ فى الســـــرادق
فقل لمـــن نام على النمـــارق
إن العلا شُـــدت بهم طـــارق
فاركب اليها ثبج المضائـــــــق
أولا ، فأنت أرذل الحـــلائق

ومن شعره الذى يصوره كذلك كسياسى وكمحارب ، قوله وقد بلغه أن بعض أعوانه يمن عليه ، ويزعم أنه لولاه لما صار عبد الرحمن إلى ماصار إليه من ملك ومجد :

لا يُلْفَ ممتنُ علينا قائـــلُ لولاى ماملك الآنـــام الداخلُ
سعدى وحزمى والمهند والقنا ومقادر بَلَغَتْ وحائل حائـــل
إن الملوك مع الزمان كواكب نجم يطالعنـــا ونجم آفـــل
والحزم كل الحزم ألا يغفلوا أيروم تدبير البرية غافل ؟!
ويقول قوم : ســـعده لا عقله خير السعادة ماحماها العاقـــل
أبنى أمية قد جبرنا صدعكم بالغرب رغما والسعود قبائل
مادام من نسلى إمام قائم فالملك فيكم ثابت متأصـــل

ومما يصور قصته فى كفاحه الطويل ، وجهاده المرير وإحسانه إلى بنى أمية قوله وقد وفد عليه بعض أقربائه فنال عطاء لكنه استقله واستطال على الداخل بدالّة القرابة :

شتّان مَنْ قام ذا امتعاض ... مُذْ قال ماقال واضمحلا
ومَنْ غدا مُصْلتاً لعزم ... مجرداً للعداة نصلا
فجاب قفرا وشق بحراً ... ولم يكن فى الأنام كَلاّ
فشادَ ملكا وشاد عزا ... ومنبرا للخطاب فصلا
وجنّدَ الجُند حين أودى ... ومَصّرَ المصر حين أخلى
ثم دعا أهله جميعا ... حيث انتأوا أن هَلُمّ أهلا
فجاء هذا طريد جوع ... شديدَ روعٍ يخاف قتلا
فنال أمنا ونال شبْعاً ... ونال مالا ونال أهلا
ألم يكن حق ذا على ذا ... أعْظَمَ مِنْ منعم ومولى ؟!

وإذا استعرضنا تلك النماذج التى بقيت من شعر الداخل، وجدناها فى موضوعاتها الرئيسية قسمة بين الحنين والفخر. أما الحنين فمصدره تعلق قلب الشاعر بوطنه الأول فى المشرق. حيث ولد ونشأ وكانت لآبائه دولة كبيرة.

وأما الفخر فمصدره بطولة الشاعر وكفاحه ومغامراته وانتصاراته، فقد استطاع وهو شاب فى الخامسة والعشرين أن يؤسس دولة عظيمة وأن يدخل التاريخ من أوسع الأبواب.

ومن هنا كان الداخل يتسم بالصدق. لأنه يعبر عن تجارب قد عاشها الشاعر وانفعل بها، حتى الفخر الذى من شأنه أن يكون مثقلاً بالمبالغات والأكاذيب قد جاء من عبد الرحمن الداخل فخراً محتملاً، لا تثقله مبالغات أو أكاذيب، لأنه يصور حقيقة الرجل وبعكس فعلا جوانب من سيرته.

ويلاحظ كذلك على شعر الداخل أنه يتسم — إلى جانب صدق التجارب — بفنية التعبير. وتتمثل تلك الفنية فى طريقة الشاعر التى يتناول بها الموضوعات فهو حين يتحدث عن بعض الأشياء لا يصفها من الخارج، وإنما يتعمقها

ويعيش معها ، ويخلع عليها حياة ترتبط بحياته ، ويبث فيها عواطف تشارك عواطفه . وقد رأينا مثلاً من ذلك فى حديثه عن النخلة .

وهوفى طريقته الفنية يعتمد على الوجدان فى الموضوع الذى أساسه الوجدان ، وعلى الإقناع فى الموضوع الذى أساسه الفكر . وقد رأينا كيف اعتمد على الوجدان فى حديثه عن النخلة وفى تحيته إلى أحبائه فى المشرق . ولنتأمل أبياته فى الرد على من كان يمن عليه من أعوانه . لنرى كيف اعتمد على الإقناع فيما أساسه الفكر . وكيف وضح مثلا أن سبب مجده ليس هو هذا الذى يمن عليه ، وإنما هو السعد والسيف والرمح والقدر وسنة الله فى تحول الأحوال وتداول الحكام .

ثم يمضى الشاعر فى الإقناع بفكرة كفاءته ومقدرته على صيانة الملك . فيبين أن قول آخرين بأن السعد وحده هو الذى وصله إلى ماوصل إليه — وليس العقل والتدبير — إنما هو قول باطل . يرد عليه ما كان من حمايته للملك ، تلك الحماية التى لا تكون إلا بالعقل والحكمة والكفاءة .

وأما نثر الداخل فقد حفظت لنا المصادر القديمة نماذج منه ، بعضها من لون الخطب ، وبعضها من لون الرسائل ، وبعضها من صنف المحاورالات .. وتلك النماذج تقدمه لنا ناثراً جيدا قوى السبك محكم العبارة مؤثراً للتركيز [شأنه فى ذلك شأن كبار الناثرين فى العصر الأموى ، قبل تأثر النثر العربى المؤثرات الأجنبيه التى عرفت فى العصر العباسى وبعده .

ومن أمثلة خطب الداخل ، قوله لأصحابه يحثهم على القتال قبيل خوض المعركة الفاصلة ضد يوسف الفهرى : « هذا اليوم هو أس ما يُبنى عليه ، إما ذل الدهر ، وإما عز الدهر . فاصبروا ساعة فيما لا تشتهرون ، تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون » .

ومن أمثلة رسائله . ما كتب به إلى خارج عليه يسمى سليمان الأعرابى ، حيث قال له :

« أما بعد ، فدعنى من معاريض المعاذير ، والتعسف عن جادة الطريق ، لتمدن يدا إلى الطاعة ، والاعتصام بحبل الجماعة ، أو لأزْوِيَن (١) بنانها على رَضَف (٢) المعصية ، نكالا بما قدمت يداك . وما الله بظلام للعبيد .

ومن أمثلة محاورات الداخل . مادار بينه وبين جندى ، حيث قال الجندى :

« يا ابن الخلائف الراشدين ، والسادة الأكرمين ، إليك فررت ، وبك عذت ، من زمن ظلوم ، ودهر غشوم ، قلل المال ، وكثر العيال ، وشعث الحال ، فصير إلى ندالك المآل ، وأنت ولىّ الحمد والمجد ، والمرجو للرفد » .

فأجابه عبد الرحمن : « سمعنا مقالتك ، وقضينا حاجتك ، وأمرنا بعونك على دهرك ، على كرهنا لسوء مقامك . فلا تعودَنّ ولا سواك لمثله من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة والإلحاف فى الطلبة . وإذا ألم بك خطب أو حزّبك أمر ، فارفعه إلينا فى رقعة لا تعدوك ، كيما نستر عليك خلتك (٣) ، ونكفّ شمات العدو عنك ، بعد رفعها إلى مالك وما لكنا — عز وجهه — بإخلاص الدعاء وصدق النية » .

وهكذا تعددت مواهب هذا الفارس العربى ، الأمير الفنان الإنسان ، حتى انتزع إعجاب أبى جعفر المنصور الخليفة العباسى المشرق الكبير ، على الرغم مما كان بين العباسيين آل المنصور ، والأمويين آلا الداخل ، من عداوة وصراع .

فقد قال المنصور يوما لبعض جلسائه : « أخبرونى مَنْ صقر قريش مِنَ

---

(١) زوى الشىء : جمعه وقبضه .
(٢) الرضف : الحجارة المحماة .
(٣) الخلة الحاجة والفقر .

الملوك ؟ قالوا ذلك أمير المؤمنين ، الذى راض الملوك . وسكن الزلازل ، وأباد الأعداء ، وحسم الأدواء . قال : ماقلتم شيئاً . قالوا : فمعاوية . قال : لا . قالوا : فعبد الملك بن مروان . . قال : ماقلتم شيئاً . قالوا : ياأمير المؤمنين فمن هو؟ قال : صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية ، الذى عبر البحر وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه ، فمصر الأمصار وجَنَّد الأجناد ودون الدواوين ، وأقام ملكاً عظيما بعد انقطاعه . بحسن تدبيره . وشدة شكيمته . إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا له صعبه ، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدُها ، وأميرُ المؤمنين بطلب عثرته واجتماع شيعته . وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه ، وطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور . وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين . . فقال الجميع : صدقت والله ياأمير المؤمنين » .

وبعد ، فتلك بعض ملامح الداخل العقلية والعملية ، كما قدمها تاريخه فى السياسة والحرب والأدب والحضارة . . أما ملامحه الجسدية ، فقد ذكروا أنه كان مديد القامة ، نحيف القوام ، خفيف العارضين ، بوجهه خال ، وبشعره حمرة ، وكان ذا ضفيرتين . وقد فقد القدرة على الإبصار بإحدى عينيه ، ربما بسبب هذا الرمد الذى أصابه قبل ارتحاله عن المشرق .

وكان يؤثر بيبرص ويعتم به . وقد نقش على خاتمة : « عبد الرحمن بقضاء الله راضى » و « بالله يثق عبد الرحمن وبه يعتصم » .

وبعدَ تلك الحياة الحافلة ، توفى الأمير العظيم سنة ١٧٢ هـ . . رحمه الله وطيب ثراه . .

ابن هانئ الأنـــدلسى

الشاعر الداعية القتيل

شاعر من كبار شعراء المغرب الإسلامى ، ولد ونشأ بالأندلس ، وعاش ومات فى شمال إفريقيا . وعاصر ثلاثة من الخلفاء كبار ، هم عبد الرحمن الناصر ، والحكم المستنصر فى الأندلس . ثم المعز لدين الله الفاطمى فى شمال إفريقيا . . كما عاصر الشاعر المشرقى الكبير أبا الطيب ، وحاول أن يسير فى اتجاهه الفنى . حتى لقبه بعض مواطنيه « متنبى الأندلس » .

كانت الفترة التى عاش خلالها ابن هانئ فى الأندلس ، من أعظم فترات الازدهار السياسى والانتصار العسكرى والتقدم الفكرى والرقى الفنى لتلك البلاد فى ظلال العهد الإسلامى . . .

كذلك كانت الفترة التى عاش خلالها ابن هانئ فى شمال إفريقيا من أكثر فترات التحرك والصراع والتفاعل فى مجالات العقيدة والفكر والسياسة والحرب . . .

ففى تلك الفترة كانت الدولة الفاطمية تكمل بناءها وتؤكد وجودها وتواجه بالأسلحة المختلفة مناهضيها ، الذين كان العباسيون أهمهم فى المشرق ، والأمويون أهمهم فى الأندلس . . . على أن الصراع على الميدان الأقرب ، كان بين حكام الأندلس الأمويين وخصومهم الفاطميين ، وذلك لتجاور القطرين قبل انتقال الفاطميين إلى مصر ، ولارتباط الأندلس بشمال الإفريقى

---

* نشر هذا المقال فى مجلة الهلال عدد ابريل سنة ١٩٧٢ .

بكثير من الوشائج منذ كان الفتح الإسلامى ، بحيث لا تحتمل طبيعة الإقليمين وجود دولتين — مختلفتى المذهب والفكر والسياسة — فى حالة مواجهة . . .

ومن هنا نتصور ابن هانئ وقد عاش شطر حياته الأول فى مناخ سياسى وفكرى معين . ثم أمضى شطر حياته الثانى فى مناخ آخر ، يوشك أن يخالف المناخ الأول تمام المخالفة .

وشاعرنا هو أبو الحسن محمد بن هانئ الأزدى . يتصل نسبه من جهة أبيه بالمهلب بن أبى صفرة . وكان أبوه يستوطن أولا إحدى قرى شمال إفريقيا ، ثم هاجر إلى الأندلس ، حيث ولد له ابنه محمد بمدينة إشبيلية سنة ٣٢٦ هـ (أو سنة ٣٢٠ على خلاف فى ذلك) .

وكان الوالد شاعراً ومشتغلا بالأدب . فنشأ الولد — بين إشبيلية والبيرة — نشأة أدبية شعرية . ولما استوى شاعراً . اتصل بصاحب إشبيلية ونال مكانة عنده . غير أن مقامه بالأندلس لم يستمر . بل كان ماحمله على الهجرة إلى شمال إفريقيا ، وهو ابن سبعة وعشرين عاماً . ذلك أنه كان — فيما يبدو — قد تعلق بالدعوة الفاطمية ، وعُرف ذلك عنه . ولعله قد صرح بشىء من ذلك فى شعره . وكانت الدعوة الفاطمية مرفوضة من حكومة الأندلس الأموية ، لأن تلك الدعوة تمثل خطراً سياسياً يهدد هذه الحكومة . فكان فى تعلق ابن هانىء بتلك الدعوة ثم فى اتصاله بحاكم إشبيلية من قبل الأمويين الأندلسيين ، خطر لا على على ابن هانىء وحده . وإنما على حاكم بلده أيضا . ومن هنا نصح هذا الحاكم ابن هانىء بمغادرة إشبيلية والأندلس جميعاً . فهاجر إلى عُدوة المغرب .

وقد تعود المؤرخون لحياة ابن هانئ أن يذكروا فى سبب هجرته إلى الشمال الإفريقى وتركه للأندلس ، أنه كان متهما بالفلسفة كثير الانهماك فى

الملذات . وهذان السببان غير مقنعين . فالفلسفة لم تكن فى أيام ابن هانئ تهمة ترجب المطاردة ، بل قد ثبت أن كثيرين من أهل الأندلس كانوا يشتغلون بها فى تلك الآونة ، التى عُرفت بحرية الفكر واحترام كل الاتجاهات والاهتمام بكل العلوم .

كذلك لم يكن الانهماك فى الملذات مما يسبب إخراج أندلسى من بلده ، فقد كان حبُّ الشرابِ والسماع والإقبال على المتع واللهو ، مما يشيع بين الأندلسيين فى أكثر الأحايين . ولم يكن ابن هانئ بدعا بين مواطنيه فى ميله إلى الملذات ، ولا فى الانهماك فيها . .

لهذا كله يرجَّح أن تكون هجرته لسبب سياسى ، وهو اتصاله بالدعوة الفاطمية . ولعل صلته مباشرة بالحكام والقواد الفاطميين بعد هجرته إلى شمال إفريقيا ، ثم تمكنه من الفكرة الفاطمية ، ومعرفته بمصطلحات الشيعة — كما يدل على ذلك شعره — مما يؤيد هذا التفسير لهجرة ابن هانئ من الأندلس(١)

ومهما يكن من أمر ، فقد اتصل ابن هانئ فى شمال إفريقيا بالقائد جوهر الصقلى ومدحه ، ثم اتصل ببعض الولاة ونال جوائزهم على أشعار قالها فيهم . . وأخيراً وصل خبره إلى المعز لدين الله الفاطمى ، فطلب أن يراه ، فتوجه ابن هانئ إلى لقائه ، وكانت له فيه ، أشعار قوبلت بالتقدير والإنعام .

وظل ابن هانئ شاعر المعز المفضل ، وداعية دولته الأثير . . ولما توجه المعز إلى مصر شيعه ابن هانئ ، ثم رجع إلى المغرب لأخذ عياله واللحاق بالخليفة . وفعلاً استعد الشاعر وتبع المعز ، ولكنه لم يلحق به . وذلك أنه حين وصل إلى برقة انتهت حياته نهاية غامضة ، فقيل : « إن شخصاً من أهلها استضافه ،

---

(١) انظر : تبين المعانى فى شرح ديوان « ابن هانىء » للدكتور زاهد على صفحة ٢٠ .

فأقام عنده أياماً، ثم كانت عربدة عليه فى مجلس أنس سببت موته ». وقيل: « إنه خرج سكران من دار مضيفه فنام فى الطريق وأصبح ميتا » . وقيل : « إنه وجد فى ساقيه من سواق برقة مخنوقاً بتكّة سراويله » . . وأغلب الظن أن ابن هانىء قد قتل قتلاً سياسياً على يد بعض أنصار حكومة الأمويين الأندلسيين المناهضين للفاطميين (١) .

وليس أدل على ذلك من هذا الغموض الشديد الذى يكتنف ميتة ابن هانىء أو قتله . .

وعلى أيه حال ، قد كانت نهاية الشاعر سنة ٣٦٢ هـ ، بعد أن بلغ من العمر ستا وثلاثين سنة (أو اثنتين وأربعين على خلاف فى ذلك) .

هذا ، وقد كان فى طبع ابن هانىء كثير من الحدة ، وفى عقيدته كثير من القلق ، وفى سلوكه كثير من الاستهتار.

أما شعره . فقد كان يسير فى الاتجاه المحافظ الجديد ، الذى كان على رأسه بالمشرق فى تلك الفترة أبو الطيب المتنبى . . وكان ابن هانئ قد عرف من قبل شعر البحترى وأبى تمام ، كما درس بعناية شعر أبى الطيب وتعلق بمذهبه. ثم كانت موهبته الخاصة وملكته المميزة ، فكان اختياره للاتجاه المحافظ الجديد أولا ، ثم كان تميزه بسمات خاصة ثانيا .

ومن هنا لم يكن شعر ابن هانئ شعراً يحول فيه اللون الخاص ، أو يعتمد فقط على الشاعرية التى تمدها القراءة ويعينها الاطلاع لكى تنتج نتاجاً كالذى قرىء . وإنما كان لشعر ابن هانىء هذا اللون المميز والطابع الخاص ، الذى لا يعدو تحصيل صاحبه أن يكون كالذى ترشفه النحلة من الأزهار المختلفة ،

---

(١) انظر : تبيين المعانى في شرح ديوان ابن هانىء للدكتور زاهد على صفحة ٢٢ .

لتخرجه بعد ذلك شيئاً آخر ، فيه طبيعة النحلة وعملها ، إلى جانب طبيعة الرحيق وعنصره .

أما أهم تلك السمات الفنية الخاصة التى تميز شعر ابن هانىء — برغم سيره فى اتجاه المتنبى وسابقيه من المحافظين المجددين — فيمكن تركيزها فى سمتين اثنتين ، هما : الحدة الفنية ، ثم المذهبية . والسمة الأولى ، وهى سمة الحدة ، تتضح فى شعر ابن هانئ ، وتتمثل فى مضمونه وشكله على السواء . فهو فنان حاد فى فنه الشعرى ، صارخ فى لونه الأدبى ، وحدته تبدو فى معانيه وصوره ، وفى ألفاظه وتعابيره ، بل فى أوزانه وقوافيه .

أما الأفكار فيلاحظ أن ابن هانئ يتعمقها ، ويبالغ أحياناً فيها . ولا يهمه بعد ذلك أيقبلها العقل أم لا يقبلها ، فهو يقول مثلا فى سيفه :

لى صارم وهو شيعى كحاملة ... يكاد يسبق كرّاتى إلى البطل
إذا المعز — معز الدين — سلطه ... لم يرتقب بالمنايا مدة الأجـــل

وهذه حدة مقبولة ، بل جميلة ، لأن الشاعر خفف منها فى البيت الأول بقوله عن سيفه « يكاد » ، ثم بتلك الصورة الفنية التى تصور السيف يسابق صاحبه إلى العدو . كما خفف منها فى البيت الثانى أن الآجال غير معروفة ، فكون السيف لا يرتقب مدة الأجل ليقضى على العدو يبدو شيئاً مقبولا بل جميلاً .

لكن ابن هانئ أحيانا يصل فى حدته المتصلة بالأفكار إلى درجة لا يستسيغها العقل ، وقد يمجها الذوق . ومن ذلك قوله فى كرم بعض ممدوحيه :

مَن كان أول نطقه فى مهده ... أن قال : أهلا ، للعفاة ومرحبا

وقوله فى أهمية آخر :

هو علة الدنيا ومن خُلقت له ولعلةٍ ما ، كانت الأشياءُ

ثم قوله المعروف فى المعز :

ماشئتَ لا ما شاءت الأقدارُ فاحكم فأنت الواحد القهـــار

وليس من شك فى أن الحدة تكون مقبولة حينما تكون عمقاً فى الفكرة ، أو حرارة فى الإحساس . أما حين تكون مبالغة متورمة ، يرفضها الذوق ، أو العقل ، فإنها تأتى ساقطة ليس لها حظ من السمو الفنى . . وقد تورط ابن هانئ فى بعض هذه الأفكار غير الناضجة نتيجة لحدته التى كان لا يستطيع السيطرة عليها أحياناً . .

وابن هانئ حاد كذلك فى صوره الشعرية ، فهو يوسع رقعتها ، ويبرز خطوطها ، ويظهر ألوانها ، ولا يعنيه بعد ذلك أجاءت الألوان صارخة أم هادئة . ولا يهمه أأتت الخطوط متناسقة أم متنافرة . فهو يقول مثلاً فى تصوير أكول :

باليت شعري إذا أوما إلى فمه أحلقه لهوات أم ميادينُ
كأنها وخبث الزاد يضرمها جهنم قذفت فيها الشياطين
تبارك الله ماأمضى أسنته كأنما كل فك منه طاحـــون
كأن بيت سلاح فيه مختزن مما أعدته للرسل الفراعين
كأنما الحمل المشوى فى يده ذوالنونِ فى الماء لمّا عضّه النون(١)

(١) النون : هو الحوت ، وذو النون هو سيدنا يونس الذى ابتلعه الحوت .

كأن فى فكه أيتام أرملـــة أو باكيات عليهن التَّبابين (٢)

وهذا من جميل التصوير ، لأن المقام يحتمل المبالغة ؛ فهو مقام سخرية يصلح لها هذا التعبير « الكاريكاتيرى » . . غير أن ابن هانئ فى مقام آخر يصل فى حدته التصويرية إلى درجة تفسد الصورة . ومن ذلك قوله يصف وجها جميلاً ، ويتحدث عن الخد وما يجاوره من شَعر يسمى العذار :

وكأن صفحة خده وعِـذارَه تفاحة رُميتْ لتقتل عقربـا

فهنا قد أدّت المبالغة — أو الحدة — فى الصورة إلى ما يبعث على النفرة ، حيث جعل الشاعر خد الجميل تفاحة وجعل شعر العذار عقربا ، وصور التفاحة وقد قذف بها العقرب ، وكأنه ليس عقرب شَعْر ، وإنما هو عقرب حقيقى من تلك الحشرات المخيفة الكريهة ، مادام الأمر محتاجاً إلى الرمى والقذف والرجم .

وابن هانىء كذلك حاد فى ألفاظه وعباراته ، فهو يؤثرها فخمة ذات جرس عال ورنين واضح ، وهو فى كثير من الأحيان موفق فى ذلك ، كأن يكون المقام محتاجاً لعلو النبر وارتفاع الإيقاع ، مثل قوله من قصيدة فى جيش المعز :

رأيتُ بعينى فوق ما كنت اسمعُ وقد راعنى يوم من الحشر أروعُ
غداةَ كأن الأفقَ سُد بمثله فعاد غروب الشمس من حديث تطلع
فلم أدْرِ إذْ سلمتُ كيف أشيع ولم أدر إذ شيعتُ كيف أودع
وكيف أخوض الجيش والجيش لجة وإنى بمن قاد الجيوش لمولـع
وأين ؟ ومالى بين ذا الجيش مسلك ولا لجوادى فى البسيطة موضع

(٢) التبابين : جمع تبان ، وهو السروال القصير (المابوه) .

ألا إنّ هذا حشد من لم يَذُقْ له غرارَ الكرى جفنٌ ولا بات يهجع

على أنه فى أحيان أخرى تدفعه الحدة المؤثرة للفظ الفخم والرنين العالى إلى الصخب والقعقعة والإتيان بالغريب . ومن هذا قوله فى حسناء أراد أن يصف كثرة حليها :

أصاخت فقالت : وَقْعُ أجرد شَيْظَمٍ وشامت فقالت : لمعُ أبيض مخْذَمِ (١)
وما ذُعرتُ إلا لجرس حليها وما لمحت إلا بُرَى فى مُخَذَّمِ (٢)

وقد عيب على ابن هانىء هذا اللون من الحدة فى الألفاظ والتعابير . وهو عيب من غير شك إذا جاء فى غير موضعه . . ومن الإنصاف أن يقال : إن هذا العيب ليس عاماً فى شعر ابن هانئ ، ولا فى أكثره ، حتى يحكم به على فنه جملة . . ومن هنا كان أبو العلاء المعرى غير دقيق الحكم ، حين اعتبر شعر ابن هانىء شيئاً لا طائل تحته ، وقال : « ما أشبهه إلا برحى تطحن قروناً » فالحق أولا أن أكثر شعر ابن هانىء لا تصل فيه حدة التعبير إلى الصخب والجلبة والقعقعة ، وإنما أكثره فيه ميل حقيقة إلى اللفظة الفخمة وإلى العبارة الجزلة . وهذا لون من التعبير ومذهب من مذاهب الأداء ، فكما يحب البعض الهمس والهدوء فى الأداء ، يؤثر البعض الآخر الجهر وعلو النبرة فى التعبير .

والحق ثانياً أن حب أبى العلاء الشديد للمتنبى وشعره ، هو الذى جعله يهجن من شعر ابن هانئ الأندلسى ، الذى كان كثير من مواطنيه يقارنونه

---

(١) أصاخت : أصغت : والشيظم من الخيل : الطويل الجسم ، وشامت : تطلعت . والمخدم : السيف القاطع .

(٢) البرى : الخلاخل . المخذم : موضع الخلخال .

بأبى الطيب ويعتبرونه منافساً له . وإلا فكيف يصدق حكم أبى العلاء على مثل قول شاعرنا :

فتكاتُ طرفكِ أم سيوف أبيك ... وكئوس خمر أم مراشف فيكِ ؟
أجلادُ مرهفة وفتك محاجرٍ! ... ما أنت راحمة ولا أهلوك !
يابنت ذى البرد الطويل نجاده ... أكذا يكون الحكم فى ناديك؟
قد كان يدعونى خيالك طارقا ... حتى دعانى بالقنا داعيك
عيناك أم مغناك موعدنا وفى ... وادى الكرى ألقاك أم واديك
منعوك من سِنَةِ الكرى وسَرَوْا فلو ... عثروا بطيف طارق ظنوك !
ودعوك نشوى ماسقوك مدامة ... لما تمايل عطفك اتهموك

وابن هانىء كذلك حاد فى موسيقى شعره ، فهو يختار قصائده من البحور الكثيرة التفاعيل العالية النغم الجلية الموسيقى ، ثم هو يؤثر القوافى الرنانة . ويصل أحيانا إلى اختيار روى غريب لم يؤلف من قبله . بل نستطيع أن نقول : إنه حاد فى كم أبيات قصائده ، فهو أميل إلى القصائد ، وإلى المطولات بصفة خاصة . .

هذه هى السمة الأولى من سمتيه البارزتين ، وهى سمة الحدة . أما السمة الثانية ، وهى المذهبية . فتبدو فى كون ابن هانئ شاعراً مذهبياً لا يؤمن بالفن لذاته ، وإنما يوظفه لتدعيم مذهب يميل إليه ويدعوله . فابن هانىء قد اتصل بالحركة الشيعية وهو فى الأندلس ، وكانت السبب فى خروجه من بلده وهجرته إلى شمال إفريقيا . ثم إنه قد اتصل بزعماء الفاطميين اتصالا مباشراً بعد هجرته ، وعمل للدعوة الفاطمية ، فكان من ألسنتها الناطقة ومن دعاتها أصحاب الصوت الجهير . ومن هنا كثرت فى شعره مصطلحات الشيعة وأفكارهم ، وبدت فى نتاجه خطوط مذهبهم وروح دعوتهم ، واشتمل أسلوبه كثيراً على

الحجاج والجدل والتعليل، فى محاولة للإقناع ، شأن أصحاب المذاهب .. وربما لا تخلو قصيدة من قصائده الكثيرة فى المعز من أمثلة على ذلك. فهو يقول مشيراً إلى فكرة الإمامة :

إمامُ عدلٍ وفتًى فى كل ناحية كما قضوا فى الإمام العدل واشترطوا

ويقول مشيراً إلى فكرة العصمة :

مؤيد باختيار الله بصحبه وليس فيما أراه الله من خلل

ويقول فى فكرة ميراث آل البيت للحكم :

هو الوارث الأرض عن والدين أبٍ مصطفى وأبٍ مرتضى

ومثل هذه الأفكار الشيعية كثير فى شعر ابن هانئ ، قد استخرجها العلماء الذين عنوا بهذه الناحية فى تراثه ، مثل الدكتور زاهد على ، الذى شرح ديوان ابن هانىء وحققه وقدم له (١) .

ولما كان ابن هانئ متفقاً مع المتنبى فى حدة الطبع ، وفى الأخذ بمذهبه فى الفن الشعرى ، ولما كان معجباً به ودارساً له أيضاً ، فقد وجد فى تراثه بعض آثار المتنبى ، حتى عيب ذلك عليه وعد من المآخذ التى وجهت إليه . ومن ذلك مثلاً قول ابن هانئ :

ألم يُبدِ سر الحب أن من الضنا رقيباً وإن لم يهتك السر هاتك ؟

فإن هذا المعنى قد سبق إليه المتنبى حين قال :

وإذا خامر الهوى قلبَ صب فعليه لكل عين دليـــل

---

(١) سمى الدكتور زاهد على عمله باسم « تبيين المعانى فى شرح ديوان ابن هانىء » .

ومنه أيضاً قول ابن هانئ :

إنّ ذل العزيز أفظع مرأى بين عينيه من لقاء الحتوف

فهذا المعنى أيضاً قد سبق به المتنبى حين قال :

غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ولا يلاقى الهوانا

غير أن ذلك وماسبق من مآخذ، لا يغض من قيمة ابن هانئ ، ولا يزحزحه عن الصف الأول بين شعراء الأندلس ، فهو من غير شك شاعر ممتاز ، يجمع إلى الأصالة الفنية التمكن من أدوات الشعر ، يحشد له غالباً المعنى العميق واللفظ القوى والعبارة المحكمة والصورة الباهرة والموسيقى الرنانة ، مع طول نفس ووفرة إنتاج .

ابـــن درّاج

« شاعر العاطفة الأسرية والأصالة الأندلسية »

١ – اسمه :

الاسم الكامل لهذا الشاعر هو : أحمد بن محمد بن العاصى بن أحمد بن عيسى بن دراج . وكنيته أبو عمر ، ولقبه القَسْطَلّى ، نسبة إلى بلده قسطة . وقد اشتهر باسم : « ابن دراج القسطلى » وكثيراً ما يقال له : « القسطلى » دون ذكر أى اسم آخر .

أما « قَسْطَلة » التى يُنسب إليها الشاعر ، والتى غلب اسمها عليه حتى اشتهر به فهى عند أكثر الباحثين قرية بغرب الأندلس ، تدخل اليوم فى حدود البرتغال ، وتسمى الآن « Cacella » وتقع على ساحـــل المحيـــط الأطلسى بين الحـــدود الإسبانية ومدينـــة « "Tavira" » . وهؤلاء الباحثون قد اعتمدوا على ماقاله الجغرافى القديم عبد المنعم الحميرى فى كتابه « الروض المعطار» وعلى ماذكره الإدريسى فى كتابه « نزهة المشتاق » ، حيث أفرد الأول مادة « لقسطلة دراج » وقال : إنها قرية فى غرب الأندلس . كما أشار إليها الثانى بما يفيد أنها من قرى الغرب كذلك .

على أن بعض الباحثين يرى أن قسطلة التى ينسب إليها شاعرنا إنما هى قرية منتمية إلى ماكان يسمى : موسطة الأندلس ، تقع قرب مدينة جَيّان . ويرجح محقق ديوان ابن دراج ، وهوالزميل الدكتور محمود مكى أنها الآن البلدة الصغيرة التى من أعمال « "Andujar" » . وتبعد بنحو عشرين ميلاً إلى شمال جيان ، واسم هذه القرية الآن هو : « Cazalilla » .

---

* ألقى هذا البحث محاضرة عامة في المعهد الاسبانى العربى بمدريد يوم ٧ ديسمبر سنة ١٩٧٦ .

وأنا أرجح أن قسطة التى ينسب إليها شاعرنا إنما هى « Santisteban Castellar de » التى هى من اقليم جيان أيضاً ، والتى تقع فى الشمال الشرقى منها . . وسبب هذا الترجيح عندى هو أن أقرب الأسماء إلى الاسم العربى القديم هو اسم "Casttellar" ، فهو الاسم الوحيد من بين الأسماء الواردة ، الذى يحوى كل حروف الاسم فى شكله العربى ، وإن كانت هذه الحروف قد جاءت بشكلها الإسبانى . فإذا فخمنا الصوت الذى يحتاج إلى تفخيم ، وتركنا الإمالة ، ونطقنا اللامين على عادة النطق العربى قلنا فى . . . Castellar قَسْطَلَرّ ، ولم يبق إلا الحرف الأخير وهو الراء — أو ال "R" — التى يختم بها الاسم فى شكله الإسبانى ، والذى يمكن أن يكون قد لحق باسم قسطلة لسبب ما ، أو أن يكون من جملة الاسم قبل النطق العربى . وقد أغفله هذا النطق لسبب ما . ومهما يكن من أمر فالقول بأن اسم قسطلة هو أقرب الأسماء إلى Castell مما لا يحتاج إلى مزيد عناء للتدليل عليه ، فهو من غير شك أقرب من "Cacella" ومن "Cazalilla" :

والفضل فى توجيه القائلين بأن قسطلة التى منها شاعرنا إنما هى قسطلة إقليم جيان ، يرجع إلى ابن سعيد المغربى صاحب « المغرب » و « رايات المبرزين » ، اللذين أوضح فيهما هذه الحقيقة . . ومعروف أن ابن سعيد أعرف بهذا الإقليم من سواه لأنه منه ، ثم لأنه عرَف وعَرَّف بمواطن ثلاثة ، يسمى كل منهما باسم قسطلة ، على حين لم يعرف من قالوا قديما بأنها قرية فى الغرب ، الا تلك القرية التى هى فى الغرب . . أما ابن سعيد فذكر قسطلة الغرب مثلهم ، ثم ذكر قسطلة التى هى من إقليم جيان ، كما ذكر ثالثة وهى قرية قرب الجزيره الخضراء ، ينسب إليها شاعر « غير شاعرنا هو : يونس بن محمد القسطلى » .

٢ — عصره :

وعصر هذا الشاعر يمتد من سنة ٣٤٧ هـ إلى سنة ٤٢١ هـ (٩٥٨ م إلى ١٠٣٠م) أى من أواخر سنوات عبد الرحمن الناصر إلى أوائل سنوات عصر

الطوائف ، مروراً بعهد الحكم المستنصر ، ثم بعهد المنصور بن أبى عامر وابنيه عبد الملك وعبد الرحمن ، ثم بفترة « الفتنة المبيرة » التى ألمت بالأندلس وجعلتها مسرحاً لصراع مرير على السلطة ، بين الأمويين وأنصارهم ، والعامريين ومواليهم ، والبربر وأعوانهم ، إلى أن انتهى الأمر بسقوط الخلافة وتقسم الأندلس بين ملوك الطوائف .

وقد كان لكل حقبة من تلك الحقب أثره فى حياة ابن دراج وفى أدبه ، فمولده ونشأته كانا فى فترة ازدهار الخلافة الأموية ، أيام الناصر والمستنصر ، حيث ازدهار الثقافة الأندلسية ووصول حضارة الأندلس إلى الذروة .. أما ولوج عالم الشعر وتألقه فيه فقد كان فى فترة الحجابة ، أيام المنصور بن أبى عامر ، الذى حجب الخليفة الصغير هشاماً الثانى ، وأصبح الحاكم الفعلى للأندلس ، والذى اشتهر بتقريب الشعراء وتشجيعهم على تجويد الشعر ، حتى لقد أنشأ لهم ديواناً خاصاً تجرى فيه الأرزاق والرواتب عليهم حسب أقدارهم .. وأما معاناة شاعرنا وتمرسه بتجارب الحياة المريرة ، فقد كانت فى فترة الفتنة ، حيث كان القلق والفزع والاضطرار إلى الارتحال ، بحثا عن الأمن وطلبا للحماية ، بل جريا وراء مايفى بضرورات الأهل وواجبات الأسرة . . وأما اكتمال نضج شاعرنا واستواء خصائصه وبلوغه الذروة ، فقد كان فيما أدرك من عصر الطوائف ، حيث وجد من جديد بعض الحكام المقربين للشعراء والمشجعين لتجويد الشعر. وفيما يلى تفصيل لهذا الأجمال :

٣ ــ مولد الشاعر ونشأته :

ولد ابن دراج سنة ٤٣٧ هـ (٩٥٨) فى بيت ذى مكانة من بيوت قسطلة ، هذه البلدة القريبة من جيان ، والتى نسبت إلى الجد الأعلى للشاعر ، فقيل لها « قسطلة دراج » ، كما كان هذا الجد وبنوه الذين ينتمى إليهم شاعرنا

يتداولون رياسة هذه البلدة، كما يدلنا على ذلك ابن سعيد فى كتابه « المغرب » .

وأسرة ابن دراج ذات أصول بربرية قديمة تنتمى إلى صنهاجة، وكانت — فيما يبدو — ضمن البربر الذين دخلوا الأندلس فى جملة من دخلوا مع طارق بن زياد سنة ٩٢ هـ (٧١١م) . ثم اندمجت هذه الأسرة البربرية الأصل فى البيئة الأندلسية متحدة مع العناصر البشرية الأخرى التى كونت المجتمع الأندلسى ، حتى أصبحت آخر الأمر أندلسية تماماً ، ولا يكاد يربطها بأصلها البربرى إلا هذا النسب المحفوظ ، شأنها فى ذلك شأن كل العناصر البربرية التى دخلت الأندلس فى تاريخ مبكر ولذا لا نرى فى شعر ابن دراج ما يشير إلى أصله البربرى ، بل على العكس من ذلك نراه يهاجم بعض زعماء البربر ، على حين يشيد فى شعره بخصومهم . . وفى الحالات الاستثنائية التى يتجه فيها إلى بعض الحكام ذوى الأصول البربرية مثل بنى حمود ، لانجد فى شعره مايوحى بأى انتماء إليهم أو التفات لأصلهم ، فكل مدحه لهم مدح عام كالذى يقال عن أى قواد أو أى ساسة . . ولهذا كله يعتبر ابن دراج منذ البداية أندلسياً ، وحق لابن حزم والشقندى أن يفاخرا به كأندلسى ، وأن يلزما أهل المغرب الحجة فى أن بلادهم لم تنجب شاعراً فى مثل نبوغه ، هذا مع علم المفاخرين بابن دراج ، بأصوله الصنهاجية القديمة ، لانهما يدركان أن آثار هذه الأصول قد تلاشت أخيراً من شخصية الشاعر ، وأصبح أندلسياً تماماً بل أصبح من أكبر مفاخر الأندلسيين حتى على المغاربة أنفسهم .

ولا يُعرف شىء محدد عن نشأة ابن دراج الأولى ، إذ لم يتعرض لها من ترجموا له قديماً من الأندلسيين والمشارقة. غير أننا نستطيع أن نستنتج من شعره وما نعرف من منزلة أسرته وطبيعة فترة نشأته ، أنه نشأ نشأة أقرب إلى الكفاية والرغد والرفعة ، وتزود منذ البداية بثقافة أدبية ولغوية وتاريخية موفورة ، وأنه اهتم بنوع خاص بأشعار الجاهليين والإسلاميين ، وفتن بنوع أخص بالشعر المحافظ الجديد

الذى وصل إلى قمته فى القرن الرابع الهجرى ، حيث انتهت زعامته فى المشرق إلى الشاعر الجهير أبى الطيب المتنبى ، وفى المغرب إلى الشاعر المجاجل ابن هانئ الأندلسى . . ومن المؤكد أن ابن دراج قد أطال النظر فى شعر هذين الشاعرين الكبيرين .. وقد ساعد على هذا التصور ما نعرف من منزلة أسرته التى سميت البلدة باسم كبيرها دراج ، ثم ما نراه من آثار تلك الثقافة الأدبية واللغوية والتاريخية فى شعر ابن دراج ، وما نعلمه من ازدهار الدراسات اللغوية والأدبية والتاريخية بالأندلس فى فترة التكوين الثقافى له . ومن الاهتمام بأشعار الجاهليين والإسلاميين والإقبال الشديد على الاتجاه الشعرى المحافظ الجديد فى تلك الفترة.. فنحن نعرف أن فترة التكوين الثقافى لشاعرنا ، هى الفترة التى جنت ثمار قدوم أبى على القالى على الأندلس ونقله إليها مجموعة ضخمة من دواوين الشعراء المشارقة الجاهليين والإسلاميين ، بالاضافة إلى كثير من كتب اللغة والأخبار . . كذلك نعرف أن فترة التكوين الثقافى لشاعرنا هى الفترة التى هضمت وتمثلت آثار أبى تمام والبحترى التى أدخلها بعض نقلة آداب المشرق مثل أبى اليسر الرياضى . . كذلك نعرف أن ديوان المتنبى دخل الأندلس على عهد الخلافة وكان من عمد الثقافة الشعرية فى فترة تكوين شاعرنا . وكان قد أدخل هذا الديوان إلى الأندلس زكريا ابن الأشج . . هذا من ناحية المؤشرات المعينة على التصور الثقافى الأدبى لشاعرنا خلال فترة تكوينه . . أما المؤشرات التى يمكن أن تعين على التصور الثقافى اللغوى والتاريخى فحسبنا أن نذكر منها أن فترة الخلافة التى كانت فترة تثقف الشاعر قد شهدت تألق عالم لغوى كالزبيدى ، وعرفت مؤرخين كالرازى وابن القوطية وابن عبدالبر والحشنى . .

ولا يمكن أن نغفل ما كان لجيان — التى تتبعها بلدة الشاعر — من مكانة فى عالم الأدب ؛ فهى بلد الشاعر يحيى الغزال الذى تألق قبل فترة الخلافة أيام عبد الرحمن الأوسط . وهى بلد ابن فرج صاحب كتاب « الحدائق الذى

ألفه للحكم المستنصر وعارض به كتاب « الزهرة » للأصبهانى ابن داود.

وهكذا نستطيع أن نتصور ابن دراج قد تثقف فى إقليم جيان ، وفى تلك البيئة الأدبية الخصبة . وأفاد من معطيات عصره وبيئته المزدهرة بالأدب واللغة والتاريخ ، والمحتفلة فى المجال الشعرى بالاتجاه المحافظ الجديد .

كما نستطيع أن نتصور أن موهبة الشاعر قد تفتحت وهو فى تلك المرحلة ، وأنه مارس قرض الشعر ، حتى أحس بالتمكن من فنه . وهنا تطلعت آماله إلى العاصمة قرطبة . التى كان صاحب السلطان فيها وفى الأندلس جميعاً هو المنصور ابن أبى عامر ، الحاجب المشهور ، الذى كان معروفاً بتقريبه للشعراء ، وانشائه ديوانا لهم ، واتخاذهم ألسنة لتأكيد سلطانه وتسجيل أمجاده والإشادة بانتصاراته .

٤ ــ اتصاله بالعامريين ثم نألقه فى فترة الحجابة :

وأول مايذكره المؤرخون من أخبار حياة ابن دراج صلته بالمنصور ، وقدومه على قرطبة ليبدأ بها عهد التألق سنة ١٨٢ ، وله من العمر ٣٥ سنة . . وقد استطاع هذا الشاعر أن يلقى الحاجب ، وأن ينشده قصيدة هائية بدأها بالغزل قائلا :

أضاء لها فجرُ النُّهى فَنَهاهـا ... عن الدَّنفِ المُضْنى بحَرَّ هواها
وضللها صبحٌ جلا ليلةَ الدجـى ... وقد كان يهديها إلىّ دجاهـا

وبعد الغزل التمهيدى ، ووصف الرحلة إلى الممدوح ، وفراق الأهل من أجله ، انتقل إلى الغرض الأساسى وهو مدح المنصور الذى قال فيه :

فحطَّتْ بمغنى الجود والمجد رحلَها ... وألقتْ بربع المكرمات عصاهـا
لَدَى ملكٍ إحدى لواحظ طرفه ... بعينِ الرضا حَسْبُ المُنَى وكفاها

حسبي رضاك من الدهر الذى عتبا ... وعطفُ نعماكُ للحظ الذى انقلبا
هو الحاجب المنصور والملك الذى ... سعى فتعالى جدُّه فتناهى
سيل الملوك الصيد من مَرْوٍ حمير ... توسّطَ فى الأحساب سمكَ ذراها
لُبابُ معاليها وإنسانُ عينها ... وبدرُ دياجيها وشمسُ ضحاها
معظّمُها منصورُها وجوادها ... وفارسُها يوم الوَغى وفتاها
ووارثُ ملكٍ أثّلتْهُ ملوكُها ... وجامعُ شملِ مجدِها وعُلاها
نماه لقودِ الخيل « تُبّع » فخرها ... وأورثه سبْىَ الملوك « سباها »
ذوُو الملكِ والتيجانِ والغررِ التى ... جديرٌ بها التيجانُ أن تتباهى

وقد كان وصول ابن دراج إلى مجلس المنصور ، وإنشاده إياه هذه القصيدة مبعث حسد له ومثار تشكيك فيه وتآمر عليه . فقد خاف كثيرون ممن حول المنصور من شعراء وأدباء ، أن يؤثر هذا الفتى الوافد من قسطلة على مكانتهم ، واستكثروا عليه أن يشاركهم منزلتهم فى ديوان الشعراء ، ومن هنا اتهموه بالسرقة الشعرية وانتحال شعر غيره ، ولغطوا بذلك عند المنصور . وكان من نتائج ذلك أن استحضره المنصور ليختبره — على طريقته إذ ذاك حين كان يشك فى عالم أو أديب — واقترح عليه بعض الموضوعات ، وطلب إليه أن يقول فيها شعراً ، فقال ابن دراج شعراً مرتجلاً فيما اقترح عليه القول فيه . وبهذا زالت تهمة السرقة وسقط ادعاء الانتحال . ووصله المنصور بمائة دينار ، وأثبته فى جملة شعرائه وأجرى عليه الرزق .

ولم يفت الشاعرَ الذكىَّ أن يؤكد شاعريته بما هو أكثر من ذلك . ليقضى قضاء تاماً على مزاعم الحاسدين ، وليثبت تفوقه بين الشعراء أجمعين ، وكأنه كان يحس أن ماسيقوله ارتجالا ، سيأتى دون الدرجة الفنية التى يُحبُّ أن يعرف بها . ولذا كان قد أعد لهذا اللقاء قصيدة جديدة ، أنشدها للمنصور بعد أن اجتاز الامتحان العسير . وفى هذه القصيدة البائية يقول :

يا مالكا أصبحتْ كفى وما ملكتْ ومهجتى وحياتى بعضَ ماوهبا

ثم يمضى فى هذه النجوى إلى أن ينتقل إلى ذكر محنة الاتهام الباطل فيقول :

ودَسّسُوا لىَ فى متْنىَ حبائلهم شنعاءَ بِتُّ بها حرّانَ مكتئبا
حتى هززتَ ، فلا زند القريض كبا فيما لدى ولا سيف البديه نبا
وأشرقتْ شاهداتُ الحق تنشر لى نورًا غدتْ فيه أقوال الوشاة هبا
هيهات أعجزَ أهلَ الأرضِ أن يجدوا للدر غيرَ عُبابِ البحرِ منتسبا
وحاش للوَردِ أن يُعزَى إلى رَمضٍ وأن يكون له غيرُ الربيع أبا

إلى أن يقول فى قدم الحاسدين لكبار الشعراء ، وفى بيان تنوع قدراته الأدبية :

ولستُ أولَ من أعيتْ بدائعُه فاستدعت القولَ ممن ظنّ أوحبا
إن امرأ القيس فى بعض لمتهمٌ وفى يديه لواءُ الشعرِ « إن ركبا »
والشعر قد أسر الأعشى وقيده دهرًا ، وقد قيل : «والأعشى إذا شربا
وكيف أظما — وبحرى زاخرٌ فطناً إلى خيال من الضّحضاح قد نضبا
فإن نأى الشكُّ عنى ، أو فمها أنذا مَهيّأً لجلىّ الخير مرتقبا
عبدٌ لنعماك فى كفيه فجرُ هدًى صارِ لمدحك يجلو الشك والريبا
إن شئتَ أملى بديع الشعر أو كتبا أو شئت خاطب بالمنثور أو خطبا
كروضة الحزْنِ ، أهدَى الوشى منظرُها والماءَ والزهرَ والأنوارَ والعُشُبا أسرَ

وهكذا تأكدت منزلة الشاعر فى بلاط المنصور ، فلم يكن فى ديوان الشعراء فحسب ، بل مالبث أن ضُمّ إلى ديوان الإنشاء ، لتمكنه من صناعة النثر إلى تمكنه من صناعة الشعر . . ومازال ابن دراج يصعد حتى أصبح من كبار شعراء المنصور ، إن لم يكن أكبرهم أجمعين » وظل يعمل فى خدمته شاعراً يسجل الانتصارات ، ويصور كبار الأحداث ، وناثراً يجيد

مايطاب إليه تحريره فى ديوان الإنشاء ، بل كان يصاحبه فى بعض غزواته ليعايش تجارب النصر على الطبيعة ، وليصور المعارك من واقع الميدان . ومن هنا توثقت العلاقة بينه وبين أميره ، وأصبحت تتجاوز علاقة شاعر مؤمل فى ممدوح كريم ، بل صارت علاقة أساسها الإعجاب الملهم والتقدير المُوحى . حتى لقد حفظ لنا ديوان ابن دراج اثنين وثلاثين عملا شعرياً فى المنصور ، مابين قصيدة وقطعة ، وحتى لزم ابن دراج أميره إلى آخر حياة هذا الأمير الذى توفى سنة ٣٩٢ هـ (١٠٠٢ م) .

وبعد موت المنصور استمر ابن دراج يعمل فى خدمة الحاجب الجديد عبد الملك بنّ أبى عامر المقلب بالمظفر ، وظل يسجل انتصاراته ويصور كبار الأحداث فى عهده ، إلى أن مات هذا الحاجب وخلفه أخوه عبد الرحمن ، فقال شاعرنا قصيدة يرثى بها الحاجب الراحل ويعزى الحاجب الجديد ويهنئه بالولاية . . ثم تنقطع صلة الشاعر — أو يسكت شعره — عن العامريين ، لأن هذا الحاجب الجديد يرتكب حماقة محاولة أخذ البيعة له ، ليكون خليفة لاحاجباً ، وتقوم الثورة ضده فى قرطبة ، ويبدأ بذلك عهد الفتنة المبيرة . التى يعانى ابن دراج بعض متاعبها فى قرطبة ثم يضطر معها إلى مغادرة العاصمة الأندلسية ، والبحث عن الأمن والحمى ومايعول الأسرة . وبهذا تبدأ مرحلة جديدة من حياة ابن دراج ، هى : مرحلة الارتحال والتنقل والضياع ، بعد استقرار فى ظل العامريين دام نحو ١٧ سنة (من ٣٨٢ هـ إلى ٣٩٩) .

٥ — فى محنة الفتنة :

قصد ابن دراج أول عهد الفتنة أن يرتبط بالثائر الأموى الذى أسقط الحاجب العامرى الطامع ، فقال قصيدة فى محمد بن هشام بنّ عبد الجبار الملقب بالمهدى يبدو أنها لم تفده . وهى القصيدة الوحيدة التى قالها فى هذا الأموى والتى مطلعها :

قل للخلافة قد بلغتِ مناكِ ورأيتِ ماقرتْ به عيناكِ

إلى أن يقول :

وأنا الشريد وظلُّ عزك موئلي وأنا الأسير وفي يديك فكاكي
أدبٌ أضاء المشرقين وتحته حظٌّ يئن إليك أنَّةَ شاكِ

وحين يُقتل هذا الأموي الثائر ، ويستولي على الأمر أموي آخر هو سليمان ابن الحكم المقلب بالمستعين ، توجه إليه الشاعر قاصدا الارتباط به .ويحفظ لنا ديوان شاعرنا ثلاث قصائد في هذا الخليفة الأموي الجديد . كما يحفظ لنا كذلك قطعة شعرية وجهها إليه معبراً عن شكواه ومعاناته ، بحيث نستطيع أن نتأكد أن قصائده المدحية التمجيدية في هذا الخليفة لم تحقق أمله فيه .

وتحت ضغط الظروف يلجأ ابن دراج إلى الحَمُّوديين ، فيمدح أولا القاسم بن حمُّود ، الذي كان وزيرا للخليفة المستعين على قرطبة ، ويشكو ماأصابه هو وأسرته من ضر ، ولكن يبدو أنه لم يحقق أملا كذلك لدى القاسم . فترك قرطبة لأول مرة متجها إلى سبتة حيث عليُّ بن حمود أخو القاسم ، وفي سبتة أنشد عليا حاكمها قصيدة من أشهر قصائده . ولكن حظه لدى علي في سبتة ، لم يكن بأوفر من حظه مع القاسم في قرطبة . ولذا عاد إلى الأندلس ، وأخذ يتنقل بين الحكام الذين كانوا من قواد بني عامر ورجالاتهم ومواليهم . والذين انتهزوا فرصة الفتنة والصراع على الخلافة في قرطبة بين الأمويين والبربر ، واستقلوا بشرق الأندلس ، واستبد كل بإقليم من هذا الشرق .

وهكذا قصد ابن دراج ألمريَّة حيث خيران العامري ، كما قصد بَلَنْسِيَة حيث مبارك ومظفر ، كما قصد شاطبة حيث ابن أفلح ، كذلك قصد طُرْطُوشَة حيث لبيب . وظل شاعرنا في هذا التنقل بين الموالي العامريين بشرق الأندلس مدة أربع سنوات (من ٤٠٤ هـ إلى ٤٠٨ هـ) دون أن يحقق مايأمل فيه من استقرار وتقدير وبلوغ قصد .

وأخيراً قصد التُّجيبيين حكام سَرَقُسْطَة ، فاتصل أول الأمر بمنذر بن يحيى التُّجيبى ، ثم بابنه من بعده يحيى بن منذر ، وقد تحقق له فى ظل حكام سرقسطة كثيرا مما كان يحلم به من أمن واستقرار وتقدير ، بعد نحو ثمان سنوات من الضياع والقلق والمعاناة منذ قيام الفتنة (٣٩٩) إلى ذهابه إلى سرقسطة (٤٠٨) . ولذا عاش ابن دراج فى ظل التجيبيين أكثر من عشر سنوات مرددا فى منذر بن يحيى ثم فى ابنه يحيى بن منذر ، كثيراً من قصائده ومقطوعاته ، التى تبلغ نحو ثلث شعره الذى يحتفظ به ديوانه . . وقد اتصل ابن دراج فى الوقت نفسه بطائفة من كبار رجالات الدولة فى سرقسطة ، قائلا ، فيهم بعض شعره .

وقد كان لتحقيق أحلام ابن دراج فى سرقسطة ما يغنيه عن مغادراتها إلى غيرها من أقاليم الأندلس ، فنحن لا نعرف له رحلة عنها منذ وفد عليها ، إلا رحلة إلى دَانِيَة ، حيث كان عليها مجاهد العامرى .. وربما كان السبب فى هذه الرحلة إلى دانية بعد الاستقرار فى سرقسطة ، هو الرغبة فى التغيير بعد طول المقام فى سرقسطة ، وربما شجع عليها ماعُرف عن مجاهد من تقريب للعلماء ورعاية للشعراء واشتغال بالعلم وممارسة للأدب . وربما كان من دوافعها كذلك بعض الأحداث التى كدرت صفو علاقة ابن دراج بيحيى بن منذر بعض الوقت . والتى شكا منها فى بعض أشعاره الأخيرة المتصلة بهذا الأمير . . ومهما يكن من أمر فقد وفد شاعرنا على مجاهد فى المرية سنة ٤١٩ وتوجه ببعض شعره إليه . . وأغلب مؤرخى حياة ابن دراج على أنه عاد بعد حين إلى سرقسطة حيث مات بها سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) وقد تجاوز السبعين . . وإن كان يرى محقق ديوانه ، زميلنا الدكتور محمود مكى « أنه ربما كان الأرجح أن ابن دراج توفى فى دانية ». ويستند الدكتور مكى فى ذلك إلى « أن الابن الوحيد الذى احتفظت كتب التراجم لنا ببعض أخباره من ولد ابن دراج ، وهو الفضل ابن أحمد ، كان من شعراء إقبال الدولة على بن مجاهد ، الذى حكم دانية

والجزر الشرقية بعد وفاة أبيه ممدوح ابن دراج » . . وفى رأيى أن وجود ابن لابن دراج فى دانية بعد وفاة الأب الشاعر ومجاهد العامرى ، لا يكفى دليلا على استقرار ابن دراج فى دانية وعدم عودته إلى سرقسطة ، ولا يُسوِّغُ مخالفة الذى عليه جُلُّ المؤرخين ، من كون ابن دراج عاد إلى سرقسطة وتوفى بها بعد أن تجاوز السبعين .

٦ – شخصية ابن دراج :

هذا . وقد كانت أخلاق ابن دراج على كثير من الاستقامة والبعد عن التحرر الذى كان يتورط فيه كثير من معاصريه . فنحن لا نجد فى أخباره . ولا نستشف من شعره لهوا ولا مجونا ولا تحرراً ، بل على العكس يؤكد شعره أنه كان على كثير من الجد والحساسية المسببين لشئ غير قليل من الأسى . . على أن من أبرز ملامح شخصية ابن دراج إحساسه العميق بالأسرة وتعلقه الشديد بالزوجة والأولاد . . وأخيراً نرى من ملامح نفسية ابن دراج شعوره دائماً بالحاجة إلى الأمن ، وإحساسه أبدا بضرورة الاستقرار ، وفزعه الشديد من التشتت والتشرد والضياع وتفرق الأهل .

٧ – شعر ابن دراج :

(ا) ديوانه وموضوعاته :

يُعتبر ابن دراج من أغزر شعراء الأندلس شعراً ، بل من أكثر شعراء العربية نتاجاً ، فقد خلف ديوانا ضخماً ، أكثره من القصائد الطوال ، التى يغلب عليها طول النفس . وقد حقق هذا الديوان تحقيقاً علمياً ممتازاً زميلنا الدكتور محمود على مكى الاستاذ بجامعة القاهرة الآن . . وظهر هذا التحقيق سنة ١٩٦١ .. وتأخذ معظم قصائد الديوان وقطعه عنوانَ المدح ، وتتضمن مادة هذا المدح كموضوع أساسى . ولكن ذلك لا ينبغى أن يخدعنا فنظن أن المدح

هو الموضوع الرئيسى عند هذا الشاعر ، أو أنه شاعر مداح فقط ، فأكثر القصائد التى دارت أساساً حول موضوع المدح أن عُنونت به. لاتخلو من أغراض شعرية أخرى ، كثيراً مازاحمت الموضوع الأصلى وطغت عليه ، وكانت أبرز ما فى القصيدة ، وأهم مايبقى منها . . فابن دراج لا ينبغى أن يؤخذ بغلبة عناوين المدح على قصائده ، ولا بإدارة معظمها حول المدح أساساً ، فهذا شئ فرضته طبيعة عصره الذى بدأ عمليا بفترة المنصور ، والذى انتهى بعهد الطوائف ، مرورا بأيام الفتنة كما عرفنا . كما فرضت هذا الشئ أيضاً طبيعةُ ابن دراج ، وإلفه لحياة خاصة فيها استقرار ورغد وسد لاحتياجات الأسرة العديدة .. لذلك لا يمكن أن تُغفَل هذه الموضوعات الجانبية أو الثانوية الهامة العديدة. التى التى تضمنتها قصائده مهما كان بها من مدح .

وأهم هذه الأغراض والموضوعات — غير المدح — وصف مواقف الوداع وفراق الأهل ، ووصف الأسفار ومشاق الرحلة فى البر والبحر ، وبالنهار والليل ، ثم التعبير عن تجارب القلق والغربة والضياع ، وتجسيم قسوة الأيام على الأب حين تثقله مسئوليات أبنائه ، وحين يرى عياله عاجزين أمام قسوة الأحداث . ويرى نفسه كذلك عاجزاً عن أن يكون لهم كما يريد ويريدون . . كذلك من أهم موضوعات شعر ابن دراج التى لا ينبغى أن تضيع فى زحمة عناوين المدح ومادته، موضوع وصف المعارك الحربية ، ومشاهد الجيوش والعدد البرية والبحرية . . وأخيراً من أهم موضوعات شعر هذا الشاعر تسجيل كثير من الأحداث التاريخية ، وخاصة تلك التى تتصل بالعلاقات بين الأمراء المسلمين والأمراء المسيحيين . وهو تسجيل أدبى شعرى بطبيعة الحال .

فابن دراج كثير الحديث عن وداعه لزوجته وأولاده ، وصَّافٌ ماهر لما يكون فى مواقف هذا الوداع من مشاهد حسية وآلام نفسية . وقد اتجه هذه الوجهة

منذ أولى قصائده التى دخل بها عالم الشهرة ، وهى قصيدته الهائية التى أنشدها المنصور . والتى يقول فيها :

ولله عزمى يومَ ودعتُ نحـوَه نفوسا شجانى بثُّها وشجاهـا
وربّةَ خدْرٍ كالجُمان دموعُها عزيز علىَّ قلبى شُطُوطُ نواها
وبنتَ ثمانٍ لا يزال يروعُنى على النأى تذكارى خفوقَ حشاها
وموقفُها والبينُ قد جدَّ جدُّه مُنوطاً بحبلىْ عاتقىّ يداهـا
تشكّى جفاء الأقربين إذا النوَى ترامتْ برحلى فى البلاد قناها

فالشاعر لا ينسى خلال قصيدته المدحية أن يذكر موقف الوداع بينه وبين أهله . ويخص بالذكر زوجته التى كانت تبكى بدمع كالجمان ، وابنته ذات الثمان . التى كانت أحشاؤها تخفق اضطراباً وحزناً لفراق الوالد ، ثم يصورها وقت الوداع . وقد تعلقت يداها بكتفيه وراحت تشكو إليه ماقد يصيبها بعده من جفاء الأقربين .

ومن أروع شعر ابن دراج فى هذا الصدد ، ما قاله فى رائيته التى عارض فيها قصيدة أبا نواس فى الخصيب بن عبدالحميد صاحب خراج مصر والتى يقول فيها :

تقول التى من بينها خفَّ مركبى عزيز علينا أن نراك تسيرُ

وكانت هذه المعارضة بناء على اقتراح المنصور . . وإذا كان أبو نومس قد ألم فى قصيدته بذكر الزوجه ومحاولتها تعويق الزوج عن السفر تعلقاً به ، وبين أنه عصاها لتعلقه وانجذابه إلى الممدوح ، فإننا نرى ابن دراج يتفوق بشكل رائع على سلفه أبى نواس ، فيتجاوز ذكر الزوجة وتعويقها ، إلى ذكر الطفل

الذى من شأنه أن يشد الوالد إلى المنزل ويثنيه عن المُضىّ فى السفر . والذى يدرك — رغم صغر سنه عن الكلام — كل ما يفرضه الموقف من حزن وألم وتمزق بين الوالد المسافر والأم المقيمة . . وفى تلك القصيدة الرائية الرائعة يقول ابن دراج :

دَعى عزماتِ المستضامِ تَسيرُ ... فتُنجدَ فى عرض الفَلا وتغورُ
لعلَّ بما أشجاكِ من لوعة النَّوى ... يَعزُّ ذليل أو يفك أسير
ألمْ تعلمى أن الثوّار هو النَّوَى ... وأن بيوت العاجزين قبـــور

إلى أن يقول :

ولمَّا تدانتْ للوداع وقد هفـــا ... بصبرىَ منها أنةٌ و زفير
تناشدنى عهدَ المودَّة والهوى ... وفى المهد مبغوم النداء صغير
عَىٌّ بمرجوع الخطاب ولحظُه ... بموقع أهواء النفـــوس خبير
تَبوأ ممنوعَ القلوب ومُهِّدَتْ ... له أذرع محفوفة ونحـــور
فكلٌّ مفدّاة الترائبِ مُرضعٌ ... وكل محيّاة المحاسن ظِـــير
عَصَيْتُ شفيعَ النفس فيه وقادنى ... رَواحٌ لتدآبِ السُّرى وبكور
وطارَ جناحُ الشوقِ بى وهفتْ بها ... جوانحُ من ذُعرِ الفراق تطير

وابن دراج وصّاف للرحلات . مفصّل القول فيها برية وبحرية . . بكل مافيها من معاناة وقسوة وآلام . . ومن أشعاره الكثيرة فى الرحلة برا - نهارا ثم ليلا — فى نفس القصيدة السابقة :

ولو شاهدتنى والصَّوارخدُ تلتظى ... علىَّ ورقراقُ السراب يَمُور
أسلط حَرِ الهاجراتِ إذا سطا ... على حُرِّ وجهى والأصيل هجير

واستنشق النكباء وهـى بوارح ... واستوطن الرمضاء وهى تفور
وللموت فى عين الجبان تلوُّنٌ ... وللذعر فى سمع الجرئ صفير
لَبانَ لها أنى من الضيم جازع ... وأنى علَى مَضىِّ الخطوب صبور
ولو بصرتْ بى، والسُّرى جُل عزمتى ... وجرْسى لجنَّان الفلاةِ سمير
وأعتسف المومأةَ فى غسق الدجى ... وللأسد فى غيل الغياضِ زئير
وقد حوَّمتْ زُهرُ النجوم كأنها ... كواعب فى خُضرِ الحدائق حُور
ودارت نجومُ القُطبِ حتى كأنها ... كئوس مَهاً والى يمنَّ مُدير
وقد خيَّلتْ طُرقُ المجرة أنها ... على مَفْرق الليل البهيم قتير
وثاقب عزمى والظلام مروع ... وقد غَضَّ أجفانَ النجوم فُتور
لقد أيقنتْ أنَّ المنى طوع همَّتى ... وأنىَّ بعطفِ العامرىَّ جدير

ومن أشعاره الكثيرة فى الرحلة بحراً ، قوله فى قصيدته النونية التى قالها حين وفد على خَيْران العامرى :

إليكَ شحنَّا الفلكَ تهوى كأنها ... وقد ذُعرتْ عن مغرب الشمس غربانُ
على لجج خضر إذا هبت الصَّبا ... ترامى بنا فيها ثبيرٌ وشهلان
موائلَ ترعى فى ذراها موائلاً ... كما عُبدت فى الجاهلية أوثان
وفى طىِّ أسمالِ الغريب غرائبٌ ... سكنَّ شفاف القلبِ شيبٌ وولدان
يُردِّدنَ فى الأحشاء حرَّ مصائب ... تزيد ظلاما ليلَها وهىَ نيران
إذا غيضَ ماء البحر منها مددنه ... بدمع عيون ممترينَ أشجان
وإن سكنتْ عنَّا الرياحُ جرَى بنا ... زفيرٌ إلى ذكرِ الأحبة حنَّان
يقلْنَ وموجُ البحرِ والهم والدجى ... تموج بنا فيها عيون وآذان
ألاَ هل إلى الدنيا معادٌ ، وهل لنا ... سوى البحرِ قبرٌ أو سوى الماءِ أكفان

وابن دراج كثير الحديث عن أولاده ، دائم الحنين إليهم والاهتمام بأمرهم.

وربما كان هذا الموضوع أهم موضوعات ابن دراج الشعرية الإنسانية ، التى تتخلل قصائده . فقد ذكر أبناءه ألوانا مختلفة من الذكر ، بلغت أكثر من عشرين مرة فى ديوانه . وهذه ظاهرة قد لا يشاركه فيها شاعر عربى آخر . ولعل من أسباب ذلك تلك الظروف الخاصة التى أحاطت بابن دراج ، من شدة حساسيته ، إلى قسوة الحياة أيام الفتنة عليه ، إلى كثرة هؤلاء الأولاد أخيراً كثرة بلغت بهم بضعة عشر ، بين بنين وبنات . ولهذا كله نرى ابن دراج يكاد يكون أكثر شعراء العربية ذكراً لأولاده وشكاية من قسوة الأيام عليهم ، ومن عجزه عن تحقيق مايحب لهم . ومن ذلك مامضى من حديثه عن بنته بنت الثمان ، وعن طفله الصغير الذى هو عيسى بمرجوع الخطاب . الخطاب ، ولكنه خبير بموقع أحزان والديه . ومنه أيضاً قول شاعرنا فى اغتراب أبنائه رغم تعلقه بهم ، وتشردهم عنه رغم احتياجهم إليه :

شدَّ الخلاءُ رحالهم فتحملتْ ... أفلاذُ قلبٍ بالهموم مبدَّدِ
وجَرَتْ بهم صعقاتُ روعٍ شردت ... أوطانهم فى الأرض كلَّ مشرَّدِ
لا ذاتُ خِدْرِهمُ يرام لوجهها ... كِنٌّ ولا ذو مهدهم بممهدِ
عاذوا بلمع الآل فى مدِّ الضحى ... من بعد ظل فى القصور ممدد
من كل عارٍ بالتجمل مكتسٍ ... ومزوَّدٍ بالصبر غير مزود

ويقول ابن دراج فى قسوة الأيام على أبنائه ، وحملها إياهم على التشرد والاغتراب حتى أصبحوا يتمزقون كلما رأوا صاحب دار أو مالك مقر ، حتى ولو كان طيرا له عش أو حيوانا له مربض :

فى أهل دار كالكواكب والنوى ... بعد النوى فلك بهم دوَّارُ
كانوا حِمالا للزمان فأصبحوا ... وُهمُ عليه بالتغرب عار

تنبو الديارُ بهم وتلك ديارهـــم غرضَ المصائبِ مابها دَيَّار
يتأوهون إذا رمت أوهامُهم ذارا لساكنها بها استقرار
و يهيجهم عينٌ لهُنَّ مرابـــض ويشوقهم طيرٌ لها أوكـــار

و يقول كذلك وهو يصور حال ممدوحه فى قدرته ، ثم حاله هو فى عجزه ، ومع ذلك يفعل أقصى مايستطيع أب من أجل راحة أولاده :

وقد عاذَ أبطالُ الجلادِ بعطفه كما عاذ أطفالُ الجلاءِ بعطفيا
وقد قَصَّرتْ عنه رماحُ عداته كما قصرتْ عنهم رياشُ جناحيا
ولكن أواسى بين عارٍ ولا بسٍ أقلِّص عن ذَيّا لأثنى على تيّا

ولكثرة تردد ذكر الأبناء والأهل فى شعر ابن دراج ، ولكثرة إثارة الحديث عنهم بهذا الشكل الذى مانظن أن شاعراً آخر قد وصل إليه ، يمكن أن نطلق على هذا الشاعر الأندلسى « شاعر الأسرة » أو « شاعر الحب الأسرى » .

وديوان ابن دراج مفعم بوصف المعارك ومشاهد الجيوش ، وذلك لارتباطه بحكام عُرِفوا بخوض المعارك مثل المنصور ، ومنذر بن يحيى التُّجيبى . . ومن ذلك قوله لهذا الأخير :

فى جفحل كالليل جَرارٍ لـــه من عِزِّ نصرك جحفلٌ جرارُ
أمددت فيه بالملائكة التى نُصرتْ بها أعمامُك الأنصار
وكسوتَ فيه الشمس بُرْدَ عَجاجة للموت تحت ظلالها إسفار
والجوُّ يَحْمى والدمـــاء سواكب والأرض ريا والسماء غبـــار
والمُقفرات سوابق وخوافـــق والشاهقات أسنـــة وشفـــار
كُلٌّ رفعنَ صدورَهن لغارة ما إن لها قبل الصدور مُغار

(ب) اتجاهه وسماته :

وشعر ابن دراج من الناحية الفنية يسير فى الاتجاه المحافظ الجديد ، فهو ليس شاعراً محافظاً قديماً كشعر جرير والفرزدق من المشارقة مثلا ، وليس شعراً محدثاً كشعر أبى نواس ومدرسته كذلك ، ولكنه من مدرسة أبى تمام والبحترى وأبى الطيب وابن هانى ، ممن عادوا إلى التقاليد المحافظة فى الشعر ، لكن مع الإفادة من الجديد المقبول وغير المناقى للتقاليد العربية ، من كل ماأمدت به الحضارة الجديدة من علم وفكر وفن . . ويعتبر ابن دراج قمة هذا الاتجاه فى الأندلس فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجرى .

وبرغم أن ابن دراج كان يسير فى هذا الاتجاه الذى سار فيه غيره من المشارقة والأندلسيين ، قد كانت له سمات خاصة تجعل لشعره شخصية متميزة واضحة بين أصحاب هذا الاتجاه فى المشرق والأندلس جميعاً . ويمكن أن نلخص تلك السمات فى خمس ، وهى : اللون المحلى ، والشعور الأسرى ، والتحليل المعنوى ، والوصف النفسى ، والنضج الثقافى .

أما سمة اللون المحلى ، فنعنى بها كون الشعر واضح التأثر بطابع الإقليم ومؤثراته . وشعر ابن دراج بيّن الأندلسية بشكل يدل قارئه وسامعه على أن صاحبه من أبناء الأندلس ، المتأثرين بطبيعتها الجغرافية ، وأحوالها السياسية ، وأوضاعها الاجتماعية وحالتها الثقافية ، وخصائصها اللغوية ، أعظم تأثير . . ويكاد ابن دراج يكون من هذه الناحية من القلة المتفردة من الشعراء الأندلسيين ، الذين لا يخطئ متلقى شعرهم أندلسيتهم ، حتى ولو لم يكن يعرف هذا المتلقى مَن صاحب هذا الشعر . فبمجرد قراءة قصيدة يحكم المتلقى بأن صاحبها لا يمكن إلا أن يكون أندلسيا ، بل يوشك أن يحدد الفترة التى عاش فيها والأحداث التى ألم بها والحاكم الذى كان على عهده .

أما الطبيعة الجغرافية فواضحة جدا فى جل شعر ابن دراج حيث

يكثر مثلا من ذكر البحر واستمداد الصور منه ، تأثرا بموقع شبه الجزيرة الأندلسية المحوطة بالأمواه من معظم الجهات. بل أنه يكثر من ترديد أسماء بلاد وأقاليم وأماكن من شبه الجزيرة ، حتى تلك التى كانت ضمن الإمارات المسيحية غير الداخلة فى نطاق أرض المسلمين . ومن ذلك قوله مخاطبا منذر بن يحيى التجيبى :

وبَسَطتَ من «قَشْتالَةٍ» يَدَ آمنٍ لرضاك فيهـا بارقٌ وسورُ

« وقشتله » فى البيت يريد بها « كاستيلا » هذا الإقليم الإسبانى المعروف Castila

ومنه أيضا قوله مخاطباً المنصور بن ابى عامر :

وبيعةُ «شَنْتَ قَرْوُجَ» أوريتَ فوقها سنا لهبٍ فيه لعميانها شَرْحُ

و«شَنْتَ قَرْوُجَ» فى البيت هى المعروفة اليوم باسم «سانتا كروث» Santa cruz

ومن ذلك كذلك قوله مخاطباً عبد الملك بن المنصور :

« وقُلُنْيَة » أنشأت فيها عارضا للحرب أبرق بالحتوف وأرعدا

« وقُلُنْيَة » فى البيت ليست إلا مدينة « كلونيا » Colunia المعروفة فى أقليم « قشتالة » .

ومنه أيضاً قوله فى منذر بن يحيى :

فَتَتَ منها قواص « بَنْبلونته » بالهدم والنار فَتًّا فتَّ فى عَضُدِهْ

« وبَنْبلونَة » فى البيت هى العاصمة المعروفة لإقليم نَبرَّة . وهى بالإسبانية Panplona

وأما الأوضاع السياسية للأندلس فتنعكس معالمها فى شعر ابن دراج بشكل واضح ، يجعل من هذا الشعر فى جملته « ديوان الأندلس فى ذلك الحين » قياساً على قول الأقدمين إن الشعر الجاهلى هو « ديوان العرب ». وأبرز ما يلفت النظر من تلك الأحداث — التى كثرت الإشارة إليها فى شعر ابن دراج — تلك الأحداث المتصلة بعلاقة الأمراء المسلمين بالأمراء الإسبان المسيحيين . فابن دراج كثير الإشارة إلى ما يتعاور على تلك العلاقات من عداوة وحرب حينا . ومهادنة وسلم حينا آخر . ثم وساطة أو سفارة أو ارتباط فى بعض الأحيايين . . وخلال ذلك نرى عدداً غير قليل من أسماء الأمراء المسيحين الإسبان يتخلل أشعار ابن دراج ، مرتبطاً بما قد يكون من حادثة سياسية من تلك الحوادث المختلفة . ويأتى ذلك على وجه لا نكاد نراه عند شاعر أندلسى آخر .

ومن هذا قول ابن دراج يوم قدوم ملك البشكنس (أو إمارة نبارة) وهو شانجُه بن غَرْسية . المعروف باسم « سانْشُو » الثانى Sancho الذى جاء إلى قرطبة معلنا الطاعة للمنصور بعد طول صراع وحرب بينهما :

فلله يوم جلَّ قدرُ عديـــده ... وعُدته عن مثلما وكأنمـا
جنود كأن الأرض من لمعانهـــا ... برُوق تلالا أو حريق تضرما
سحاب من البيض الخوافق قد علا ... وبحر من السَّرْد المضاعف قد طما
بكل كمىٍّ عامرى كأنمـــا ... تسربل من شمس الضحى وتعمما
يُحيى الأميرَ بالحياة مبشرا ... وإن كان قد فاجاه بالموت معلما
وقد طالما لاقاه قِرنا مُساورا ... فوشكان مالاقاه حزباً مسلما
كأن النجوم الزهر حفت بوجهه ... فأدته محروساً إلى قمر السما

ومن الأحداث التاريخية التى أشار إليها ابن دراج محدداً اسم بطلها الإسبانى .

وفادة أمير قشتاله شانْجهُ بن غَرْسيه، المعروف فيما بعد باسم « سانْشو » الأول Sancho I حين وفد على المنصور بن أبى عامر فى قرطبة سنة ٣٨٢ مؤكدا الطاعة والمسالمة . . ويؤكد محقق ديوان ابن دراج أن الشاعر تفرد بإيراد هذه الوفادة التى لم تتحدث عنها كتب التاريخ الإسلامية و المسيحية . . يقول الشاعر :

وقد تيمَّم « شَنْجٌ » منك عائدة ... تُجيره من سيوف الكرب والوجل
وقاد نحوك — والتوفيق يقدمه — ... جيشا من الذل ملء السهل والجبلِ
مستعطفا لحياة جَلَّ مطلبها ... عن مبلغ الكتب أو مستعطف الرسل

ومن ذلك أيضاً قول ابن دراج مخاطباً منذر بن يحيى التجيبى :

ودنا ابن « رُذْمير » يزلزل خطوَهُ ... أمَلٌ تقَسَّمَ نفسه وحِذارُ

وابن « رذْمير » هذا هو ملك ليون، ألفونسو الخامس، نَسَبَهُ الشاعر إلى جده راميرو . Ramir

ومن هذا القبيل قول ابن دراج :

«وفرْذلَنْدُ » رددتَ المُلك فى يده ... وما رجا غير رَدِّ الروح فى جسده

وفرْذلَنْدُ هو فِرْنانْدو بالإسبانية « Fernando » ويبدو أنه كان أحد المنشقين على سانْشُو ملك نبَرة ، وأنه بمساعدة منذر بن يحيى استطاع أن يحكم .

وشعر ابن دراج يعكس الأوضاع الاجتماعية للأندلس — فى عصره — بشكل واضح . فهى استقرار وانتصار ومجد أيام المنصور ، وهى صراع وضياع وتمزق أيام الفتنة . ثم هى هدوء نسبى ودويلات صغيرة أول عهد الطوائف . .

كذلك يعكس شعر ابن دراج حالة الأندلس الثقافية . وماوصلت إليه من نضج فى شتى فروع المعرفة الإنسانية وخاصة الجانب اللغوى والتاريخى والأدبى. بل إن شعر ابن دراج ينضح بهذه الثقافة بشكل يلفت النظر ، حتى اعتبرنا خاصة النضح الثقافى من سمات شعره .

على أن من أهم مايلفت النظر من ذلك هو هذا الجانب اللغوى المحلى الذى تفرد به الأندلسيون ، الذين كانوا يعرفون — أو يعرف بعضهم — شيئاً من لغة مُعايشيهم الإسبان المسيحين . وفى شعر ابن دراج نماذج قد استخدم فيها ألفاظاً من تلك اللغة اللاتينية الأصل ، وكان فى استخدامه لها على معرفة تامة بمعانيها عند أصحابها . ومن ذلك قوله مستخدماً لفظه « لونه » بمعنى القمر ، فى قصيدة تتصل بانتصار لعبد الملك بن المنصور بن أبى عامر ، فتح فيه الحصن الذى يحمل هذا الاسم فى مملكة ليون سنة ٣٩٥ (١٠٠٥م) :

ولا مثل يوم نحو « لونة » سِرتَه وقد قنَّعتْ شمس النهار غياهبه

إلى أن يقول :

فياليت قوطا حين شاد بنـــاءه رآه وقد خرَّت إليك جوانبه
ويالَيت إذ سماه بَدْرًا معظمـــــا رآه وفى كسف العجاج مغاربه

ومن ذلك أيضاً قول ابن دراج مخاطباً صديقاً :

وانصب مجانيقا من «النِّيم» التى أحجارهن من « الرَّواطم » والنَّخَبْ

والنِّيم فى هذا البيت : جمع نيمة ، وهى عند الأندلسيين القنينة ، و«الرَّواطم» جمع رَطُومة ، ومعناها الزجاجة . وهى لفظ أندلسى مستمد من اللاتينية الدارجة (الرومانثى) واللفظ الرومانثى Radoma

وهكذا نرى أن ابن دراج شاعر أندلسى أصيل ، حتى ليمكن أن يسمى أيضاً لهذه الخاصة الواضحة « شاعر الأصالة الأندلسية » .

أما الشعور الأسرى ، فقد مَضَت نماذج تؤكده أثناء الحديث عن موضوعات شعر ابن دراج .

وأما الوصف النفسى ، والتحليل المعنوى اللذين اعتبرناهما من خصائص الشاعر ، فيمكن أن نتأمل فيهما بعض مامر من نماذج شعرية وخاصة ما هو متصل بأحزان الشاعر ومواقفه العاطفية . ففى هذه النماذج نرى كيف يهتم هذا الشاعر بالجانب النفسى أعظم اهتمام ، وكيف يحلل الفكرة ويتقصاها حتى يكاد يُقطِّرها ، على نحو يُشبه ما كان يفعله ابن الرومى الشاعر المشرقى الكبير .

وأما النضح الثقافى فينطق به شعر هذا الشاعر الغزير الثقافة التاريخية والأدبية واللغوية ، حيث تكثر فيه الإشارة والإحالة والتلميح إلى شخصيات وحوادث تاريخية ، وأسماء وقضايا أدبية ، وقواعد وطرق نحوية .

فمما ينضح بالثقافة التاريخية قوله لبعض ممدوحيه :

وأصبتُ فى سبأ مورَّثَ مُلكها ... يَسبى الملوكَ ولا يدبُّ لها الضَّرا
فكأنما تابعتُ تُبَّعَ رافعا ... أعلامَه ملكا يدين له الورى
والحارثَ الجُفنىَّ ممنوعَ الحمى ... بالخيل والآساد مبذولَ القرى
وحطتُ رحلى بين نادى حاتمٍ ... أيام يُقرى موسرا أو معسرا
ولقيتُ زيدَ الخيلِ تحت عَجاجةٍ ... تكسو غلائلُها الجيادَ الضُّمَّرا

ومما ينضح بالثقافة الأدبية قوله :

إن امرأ القيس فى بعض لمتَّهَمٌ ... وفى يديه لواء الشعر إن رَكِبا
والشعر قد أسرَ الأعشى وقيَّدَه ... دهرًا ، وقد قيل : والأعشى إذ طربا

ومما فيه تلميح بالنحو قوله :

وقد تخفض الأسماء وهْى سواكنٌ ... ويَعْمَل فى الفعل الصحيح ضمير

٨ ــ منزلتــه :

وقد كان ابن دراج ذا منزلة شعرية عظيمة ، حتى قال عنه ابن حيان مؤرخ الأندلس العظيم : « وأبو عمر القسطلى سبَّاق حلبة الشعراء العامريين ، وخاتمة محسنى أهل الأندلس أجمعين » . وقال عنه ابن بسام صاحب الذخيرة : « وكان أبو عمر القسطلى وقته لسانَ الجزيرة شاعراً ، وأولاً حين عد معاصريه من شعرائها المشهورة ، وآخر حاملى لوائها ، وبهجة أرضها وسمائها ، وأسوة كتابها وشعرائها » . . كما قال عنه ابن حزم القرطبى : « لوقلت : إنه لم يكن بصقع الأندلس أشعر من ابن دراج لم أبعد » . . كما قال عنه أيضاً : « لولم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج لما تأخر عن شأو حبيب والمتنبى » .

وكانت لابن دراج شهرة كبيرة فى المشرق ، فقد ذكره الثعالبى فى اليتيمة ، ونقل بعض أشعاره ، وقال عنه : « كان بصقع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام ، وهو من الشعراء الفحول . وكان يجيد ماينظم ويقول » .

وقد تسبب عدم ظهور ديوانه كاملاً فى تاريخ مبكر ، وعدم إلمام بعض الدارسين بكل جوانب شعره نتيجة لذلك ، فى تورط هذا البعض فى أحكام خاطئة على ابن دراج وشعره . ومن أشهر من تورط فى هذه الأخطاء ، المرحومان الأستاذ أحمد أمين فى « ضحى الإسلام » ، والدكتور أحمد ضيف فى « بلاغة العرب فى الأندلس » . وليس هنا مجال مناقشة آراء هذين الناقدين الكبيرين .

وحسبنا أن أوضحنا فى هذه العجالة أهم جوانب حياة الشاعر وأبرز سمات فنه ، مركزين على جانب الأصالة الأندلسية فيه :

ابـــن زيـــدون

الشاعـــر الوزير العاشق

هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومى (١) . عاش صدر حياته فى أواخر العهد الأموى بالأندلس، وعاش بقية عمره فى عصر ملوك الطوائف . . فلما أحاطت الفتن بقرطبة فى آخريات العهد الأموى ، كان من الزعماء الثائرين على الفساد ، ومن المساعدين فى تقويض السلطة الأموية ، وإقامة الحكم الجديد الذى كان على رأسه أبو الحزم بن جَهْوَر ، هذا الحكم الذى يعد قيامه فى قرطبة الإعلان الرسمى لقيام عصر ملوك الطوائف . .

وفى ذلك العصر انقسمت الأندلس إلى دويلات ، يحكم كلا منها ملك مستقل . فعلى حين كان ابن جهور فى قرطبة ، كان ابن عباد فى إشبيلية ، وكان ابن الأفطس فى بطليوس ، وكان ابن ذى النون فى طليطلة . وهكذا . . وكان هذا التقسيم سبباً فى التناحر المؤدى إلى الضعف السياسى والعسكرى . وإن كان من جانب آخر قد خلق جواً فكرياً وأدبياً على كثير من الازدهار ، وذلك بسبب التنافس بين ملوك الطوائف . . ومحاولة كل منهم أن يحيط نفسه بأكبر عدد من العلماء والأدباء . . كذلك عرف هذا العصر كثيراً من الحرية الاجتماعية ، التى رفعت يد التحشم والمحافظة عن العادات والتقاليد ، وأتاحت لمسلوك الشخصى تحرراً لم يعرف فى غير هذا العصر ، وربما لم يعرف فى غير الأندلس من أقاليم العالم العربى القديم . .

وقد ارتفعت منزلة ابن زيدون بعد قيام العهد الجديد فى قرطبة حتى أصبح

---

(١) نشر هذا المقال فى مجلة الهلال عدد يونية سنة ١٩٧٣ .
ولد سنه ٣٩٤ هـ بضاحية الرصافة من ضواحى قرطبه .

من وزراء ابن جهور . إلا أن العلاقة ساءت بينه وبين الحاكم بعد حين . حتى حبس فى قرطبة وعانى كثيراً من الضيق والألم . . ثم استطاع أن يهرب من سجنه ، ولجأ إلى إشبيلية التى كان ملكها المعتضد بن عباد ، الذى أكرم ابن زيدون وقربه . . ولكن الحنين استبد بالشاعر بعد فترة ، فعاد إلى قرطبة مستخفياً ، واعتذر إلى ابن جهور مستعيناً ببعض الأصدقاء ، حتى عفا عنه وفضل كسبه إلى جانبه . .

ثم مات أبو الحزم بن جهور ، وخلفه ابنه أبو الوليد ، الذى كان صديقاً لابن زيدون فقربه وجعل مكانته أعلى مما كانت أيام أبيه . . ولكن ذلك لم يستمر . فقد عملت الوشايات عملها فى تنفير أبى الوليد منه ، فتنكر للشاعر الذى آثر الارتحال مرة ثانية إلى إشبيلية ، حيث تلقاه ملكها المعتضد — من جديد — تلقيا حسنا . وجعله من وزرائه .

ولما مات المعتضد وجلس على عرش إشبيلية ابنه المعتمد . أقر ابن زيدون على الوزارة ، بل زاد فى إعلاء شأنه ، إذ كان الملك الجديد من الشعراء الذين قد عرفوا قدر الشاعر الكبير ابن زيدون . . وأخلص ابن زيدون — بدوره — للمعتمد ، وساعده فى ضم قرطبة إلى ملكه . . وحينئذ عاد إلى قرطبة بلده ، وحسب أنه سوف ينعم بالهدوء . ولكن أعداءه كادوا له ، وزينوا للمعتمد أن يبعث به إلى إشبيلية . . وكان الرجل قد تقدمت به السن ، وتصالحت عليه الأحداث . فكانت نهايته فى هذه الرحلة (١) .

وكان لبطلنا شخصية تتسم بسمات خاصة قلما تجتمع كلها فى بطل . فهو مديد القامة قوى البناء ، مهيب الطلعة وسيم الخلقة . . وهو أيضاً أبيُّ النفس ذكى العقل مرهف القلب . . وهو على الرغم من حدته وحساسيته

---

(١) كانت وفاته سنة ٤٦٣ هـ .

صامد صبور متفائل ، ذو خبرة واسعة بالناس والحياة وطبائع الأشياء . كل ذلك إلى ثقافة واسعة وموهبة شعرية ممتازة وقدرة أدبية فائقة .

وأبرز شخصية فى حياته هى الشاعرة الأميرة ولادة بنت الخليفة الأموى الأندلسى محمد بن عبد الرحمن ، الملقب بالمستكفى بالله . وكان هذا الأب أحد هؤلاء الخلفاء الضعاف الذين توالوا على حكم الأندلس خلال تلك الفترة المضطربة التى شهدت انهيار العهد الأموى ثم قيام عصر الطوائف . .

ومهما يكن أمر هذا الخليفة الأب وضعفه ، ثم هروبه وموته مسموماً ، ومهما يكن أمر أسرتها الأموية جميعاً ، وانتهاء أمرها فى الأندلس . فليس من شك فى أن هذا الأب قد أنجب أنثى رائعة الجمال قوية الشخصية واسعة الثقافة عارفة بالأب مقتدره على قول الشعر . وليس من شك أيضاً فى أن تلك الأسرة قد خلفت أميرة فيها ثراء الأميرات و بذخهن ، إلى جانب مايُعرفن به عادة من كبرياء لايقهرها إلا الحب . ومن نزوات ومغامرات لا يوقفها إلا مهاجمة الشيخوخة وتصويحها لنضارة الحسن ، ثم تعويقها لنبض القلب . .

فقد أضافت ولادة إلى تحرر عصرها ألواناً من التحرر التى أتاحتها لها ظروفها الخاصة ، فجعلت من قصرها ملتقى أدبيا ، تستقبل فيه الكتاب والشعراء والنقاد ، حيث يكون تناشد الشعر والحوار فى الأدب والنقاش فى النقد ، وحيث يكون إلى جانب هذا الاستماع إلى الموسيقى والطرب بالغناء . ثم يكون خلال هذا كله مجال لتحرك العواطف نحو الفاتنة صاحبة (الصالون) - بل للتنافس على حبها ومحاولة كسب قلبها . .

والذى يغلب على الظن أن ولادة كانت على الرغم من ذلك كله بعيدة عن التبذل ، مصونة من الإسفاف . وكان حسبها من اللعبة ظفرها بالإعجاب والحب والتقدير ، وتنافس الجميع فى إرضائها والتغنى بها . وقد أكد ذلك

المؤرخ الأندلسى الثقة ابن بسام ، حيث قال فى كتابه الذخيرة عن ولادة : كانت « يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، إلى سهولة حجابها ، وكثرة منتابها . تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب . . وقد تحدثت هى عن نفسها بما يؤكد هذا فقالت :

إنى وإنْ نظر الأنام لبهجتى كظباء مكة صيدهن حـــرامُ
يُحسبن من لين الكلام فواحشا ويصدهن عن الخنـــا الإسلام

وهذا التحرر الذى كانت تسمح به الحياة الاجتماعية الأندلسية ، والذى أضافت إليه ولاّدةُ أبعادا جديدة بحكم كونها أميرة ضاع سلطان أسرتها ، وضاع معه كثير مما كان يمكن أن تحافظ عليه من تحشم وتوقر ، ثم هذا الملتقى الأدبى بكل مايدور فيه من منافسات حارة وعواطف محتدمة ومهاجاة لاذاعة نتيجة للمنافسات بل الخصومات — كل هذا قد جر ولادة إلى مجاراة ضيوفها وأصدقائها ومحبيها فى بعض ما كانوا يخوضون فيه . فقد تورطت فى الحديث الصريح عن عواطفها — على غير عادة الشواعر العربيات وبخاصة فى المشرق — كما تورطت فى بعض الشعر الذى يدخل فى باب الأدب المكشوف ، والذى لا عهد لنا بتلقيه من النساء فى تراثنا العربى . وكان أغلب هذا الشعر من ولادة يأتى فى مقام الهجاء الذى وجدت نفسها مسوقة إليه فى جو ملىء بالتناحر ، الذى هو فى كثير من الأحيان لا يعدو أن يكون لعبة أدبية .

فى هذا الإطار نستطيع أن نتصور ولادة ، ولا نستطيع أن نتجاوز هذا التصور كما فعل بعض الباحثين ، حين استندوا إلى نصوص منسوبة إليها ، وإلى أخبار مروية عنها ، فذهبوا إلى حد تصويرها واحدة من بنات الليل أو بائعات الهوى ، بل ذهب البعض إلى تصويرها امرأة مريضة بالشذوذ الجنسى . مصابة

بالعقد التى منها حب تعذيب الغير . . نعم لا نستطيع أن نتصور ولادة بهذا التجاوز المبالغ فيه ، مهما اعتمد فى هذا التصور على نصوص وأخبار ، فهذه النصوص وتلك الأخبار يشوبها الشك من وجوه كثيرة أهمها أنها تتعارض مع نصوص أخرى تؤكد عدم انحدار ولادة إلى هذا الدرك ، ثم إن تلك النصوص من الممكن أن توضع وتنسب إلى ولادة أو يُتحدث بها عنها ، نتيجة لهذا الجو الذى كان يحيط بها ، وهو جو ملىء بالتنافس والتناحر والخصومات والتهاجى .

فالرابح يمدح ويتغزل ويمجد ، والخاسر يهجو ويجرح ويستخف ، وقد يأخذ ذلك الهاجى المجرح المستخف طريقاً أكثر دهاء وأفظع خبثاً ، وهو طريق اختلاق الأخبار الكاذبة وانتحال الأشعار الموضوعة ، وإسناد هذه وتلك إلى الشاعرة المتحررة المتورطة ، التى جعلت من نفسها غرضاً يُرمى ، تارة بالورود والقبلات ، وأخرى بالسهام واللعنات .

ونحن نستبعد مرضها بحب تعذيب الغير ، الذى مال إلى اتهام ولادة به بعض الباحثين ، بحجة أنها صرعت بحبها عددا من المحبين ، وعاشت بعد ذلك دون زواج ، وكأن رسالتها وغايتها إيقاع المحبين فى شراكها وتعذيبهم فحسب — نستبعد ذلك لأن امرأة مريضة شاذة لا تستطيع أن يخفى أمرُها على هذا النوع من الرجال الذين كانوا يهيمون بها — وخاصة ابن زيدون الذكى اللماح القوى الشخصية المجرب للناس والحياة — كما أن امرأة مريضة شاذة لا تستطيع أن تمنح الحياة الأدبية فى قرطبة ، ولا أن تمنح عارفيها وأصدقاءها ومحبيها هذا العطاء السخى من الحب والجاذبية والإلهام والنشاط الشعرى والفنى الموفور . .

والذى نطمئن إليه فى أمر كثرة أحبابها وعدم زواجها . هو أنها كانت — لتحررها — مثلا للصديقة والحبيبة المؤنسة ، ولكنها لم تكن تصلح زوجة . . ولهذا تهافتوا عليها فى المجال الذى رأوها تصلح له ، وكفوا عنها فى المجال الذى

رأوها لا تجود فيه . . هذا من جانب من أحاط بها من الرجال ، أما من جانبها هي ، فقد كانت شديدة الطموح والكبرياء ، فقضت عمرها — ككثيرات في كل زمان ومكان — تنتظر فارس أحلام خاص من صنع كبريائها وطموحها ، وهذا الفارس — عادة — لا يرضخ لمثل هذا النوع من النساء .

ونعود إلى شاعرنا وصاحبته ، لنرى ابن زيدون يتردد على الملتقى الأدبي الذي تعقده ولادة ، وكان صاحبنا في ذلك الحين قد نضج فنياً وارتقى اجتماعياً ، فهو شاعر كبير ووزير خطير ، وهو إلى ذلك وسيم الطلعة رائع الهيئة ، ينتمي إلى أسرة من كبريات الأسر الأندلسية ، وكان في ذلك الوقت مكتمل الشباب عزباً . . وأعجبت به ولادة كما أعجب بها . وتحول الإعجاب بسرعة إلى حب . . وأخذ هذا الحب شكل الهيام الحار اللاهب . الذي تنديه اللقاءات العامرة بالثمار ، التي يعيش عليها المحبون المتواصلون .

وقد بلغ هذا الهيام حداً جعل المحبوبة هي التي تطلب اللقيا في بعض الأحايين ، وتهيئ لها الوقت والجو ، ومن ذلك قولها :

ترقَّبْ إذا جنَّ الظلامُ زيارتي ... فإني رأيتُ الليل أكتم للسرِ
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح ... وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

وكان ابن زيدون يحوطها بكل صون ، ويرعاها بكل حفاظ . ومن ذلك قوله :

أصونك من لحظات الظنون ... وأعليك من خطرات الفكرْ
وأحذر من لحظات الرقيب ... وقد يستدام الهوى بالحذرْ

وكانت نيران الوجد تلهب الحبيبين حين تحتّم بعضُ الظروف ابتعاد

أحدهما عن الآخر . حتى لقد كتبت ولادةُ إلى ابن زيدون مرة تقول :

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق ... سبيل فيشكو كل صب يمالقى !
وقد كنت أوقات التزاور فى الشتا ... أبيت على جمر من الشوق محرق
فكيف وقد أمسيت فى دار قطعة ... لقد عجّلَ المقدار ما كنت أتقى
تمر الليالى لا ارى البين ينقضى ... ولا الصبر من رق التشوق معتق
سقى الله أرضا قد غدت لك منزلا ... بكل سكوب هاطل الودق مغدق

كما توجه ابن زيدون إلى صاحبته بأمثال تلك الأبيات :

ودّعَ الصبرَ محبٌّ ودعكْ ... ذائع من سره ما استودعكْ
يقرع السن على أن لم يكن ... زاد فى تلك الخطا إذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنا ... حفظ الله زمانا أطلعك
إن يطل بعدك ليلى فلكم ... بِمتُّ أشكو قصرَ الليلِ معك

وهكذا عاش ابن زيدون وولادة أول عهدهما فى وصال معطاء ، لا يقطعه إلا تباعد مؤقت واعد بمزيد من الرخاء .

غير أن الجو الذى كان يتنفس فيه هذا الحب لم يكن نقياً ، فقد كانت تعكر صفوه ألوان من الحسد والمنافسة ومزاحمة الآخرين . فمعروف أن عددا من الشعراء والكتاب كانوا يترددون على ملتقى ولادة . ويقيمون صلات معها من خلال الأدب وجلسات الاستماع . وقد كان جل هؤلاء ينفس على ابن زيدون مكانته من ولادة ، ويعمل — ما استطاع — على إبعاده وإخلاء الجو لنفسه . وكان من أبرزهم ابن القلاس وابن عبدوس .

أما الأول فقد استطاع ابن زيدون أن ينحيه من طريقه ويحمله على الانسحاب

من الميدان . حين وجه إليه قصيدة قاسية جعلته يؤثر السلامة . . وأما الثانى فقد كان عنيداً داهيه ماكراً . فظل يزاحم ابن زيدون ، بل راح يكيد له عندها . فاضطر ابن زيدون إلى كتابة رسالة هزلية يسخر فيها منه . وجعلها على لسان ولادة . . ولكن هذه الرسالة زادت ابن عبدوس حنقاً على ابن زيدون ، فلم يكتف بإثارة ولادة عليه ، بل اشترك فى تأليب ابن جهور ضده ، حتى انتهى به ذلك إلى السجن ، وخلا الجو لابن عبدوس (١).

على أن سجن ابن زيدون فى قرطبة ، ثم فراره من السجن إلى إشبيلية ، ثم عمله فى دولة بنى عباد ، وعدم إتاحة الظروف له أن يستقر فى قرطبة بصفة دائمة ليواصل حياة طبيعية مستقرة ، هذا بالإضافة إلى انغماسه فى السياسة وعدم تمكنه من رعاية حبه رعاية كاملة ، كل ذلك قد ألهى عنه ولادة إلى درجة تكاد تكون نهائية . . أما هو ، فقد عملت كل تلك العوامل على صقل نفسه وترقيق وجدانه وتعميق إحساسه بالأسى . فترك التورط فى المكايدة ، وكف عن الأذى بالتعريض والتلميح فضلاً عن المباشرة والتصريح . . وكان ينتهز الفرص المتاحة ليعبر عن جوهر حبه بعيداً عن كل الشوائب

وكان دائم التذكر لهذا الحب جاعلا من عهده أجمل العهود ومن ذكرياته أحلى الذكريات . كما كان دائم المقارنة فى أشعاره بين حاله بالأمس حيث الوصال والمودة تشرق بهما الدنيا وتتجمل الحياة ، وبين حاله اليوم حيث القطيعة والتدابر يظلم بهما الوجود ويقبح وجه الزمان . . ولقد أودع ابن زيدون فى أشعاره التى من هذا اللون أعمق معانى الحب وأحر لواعج الصبابة وأروع صور التجارب العاطفية الصادقة .

---

(١) ظلت العلاقة بينهما حتى تجاوزا الثمانين . وقد مات هو سنة ٤٧٢ ثم ماتت هى سنة ٤٨٤ هـ وقد قاربت المائة وبددت ثروتها حتى كان يساعدها بعض الاصدقاء .

ومن هذا اللون من شعره ، قصيدته النونية المشهورة التى بعث بها من إشبيلية إلى ولادة بقرطبة ، وذلك بعد فراره من سجن ابن جهور والتجائه إلى بلاط ابن عباد .

و تلك القصيدة يقول :

أضحى الثنائى بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لُقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقا إليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضى علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكمُ ايامُنا فغدت ... سُودا ، وكانت بكم بيضا ليالينا
إذ جانبُ العيشِ طَلْق من تألُّفنا ... ومربع اللهو صاف من تصافينا
لا تحسبوا نأيكم عنا بغيرنا ... إن طالما غير النأىُ المحبينا
والله ماطلبت اهواؤنا بدلا ... منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

ومن هذا اللون من شعر ابن زيدون كذلك ، قصيدته القافية ، التى قالها بعد أن عاد إلى بلده مستخفياً من إشبيلية . . والزهراء ضاحية قرطبة الجميلة ، قد ألهمته أن يقول فى هذه القصيدة التى بعث بها إلى حبيبته الأولى :

إنى تذكرتك بالزهراء مشتاقا ... والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال فى أصائله ... كأنه رقّ لى فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضى مبتسم ... كما شققتَ عن اللّبات أطواقا
نلهو بما يستميل العين من زَهَرٍ ... جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعينه إذ عاينت أرقى ... بكت لما بى فجال الدمع رقراقا
لو شاء حملى نسيمُ الصبح حين سرى ... وافاكمُ بفتى أضناه مالاقى

ولكن هذا الشعر وغيره لم يلين قلب ولادة ، ولم يفتحه ثانية لابن زيدون ، فقد تحطم حبها له بعوامل عديدة . منها منافسة الآخرين وتشويههم صورته ، ومنها تمكين ابن زيدون لأعدائه من نفسه ، وتورطه فى الإساءة إلى حبيبته بما يجرح أنوثتها ويدمى كبرياءها ، ومنها قوة شخصية كل من الحبيبين بحيث كان أحدهما لا يكمل الآخر وإذا كان يصدمه ويواجهه ، ومنها أن كلا منهما كان شاعراً ، وكان ابن زيدون أقوى شاعرية وأعظم شهرة ، بل كان أحياناً ينتقد شعر ولادة ، مما جعل إحساسها به يشوبه كثير من الإحساس بالخطر على الذات — ذات الشاعرة الكامنة فى المحبة — التى تعتز بفنها اعتزازاً لا يمكن أن تضحى به من أجل رجل طاغٍ لامع ، لا تحب أن يحوّل نورُه بريقَها إلى ظلام.

ومن هنا كانت نهاية هذه القصة العاطفية نهاية طبيعية ، بأن انتهى الحب من قلب المحبوبة وأصبح ذكرى قد لا تحرك شجنا ، على حين بقى هذا الحب فى قلب المحب ، وصار لهيباً كامناً تؤججه أية نسمة تهب من مواطن الذكريات ، بل قد تحوّل هذا الحب لدى الحبيب الشاعر إلى رمز لمأساة حياته كلها ، تلك الحياة التى امتلأت بالصراع والعذاب والمرارة إلى جانب ما امتلأت به — فى بعض الأحيان — من الوئام والهناءة والحلاوة . . فكثيرا ما كان يبكى حظه ويندب أيامه ويتحدث عن عذاباته ، من خلال حديثه عن تجربة حبه . وكثيراً ما كان يتخذ حديثه عن ولادة وأيامه الأولى معها ، وأيامه الكئيبة بعدها تجسيداً — أو معادلا موضوعياً — لقصة حياته كلها ، وكأن حديثه عن حبه المخفق وعذابه بالهجر ومرارته بالقطيعة ، ليس إلا متنفساً يعبر بواسطته عن حياته المخفقة وعذابه بتآمر الأعداء ومرارته بقطيعة حسن الحظ .

المعتمد بن عباد

الشاعر الملك السجين

كانت حياة هذا الشاعر صورة حية لتقلب الزمن . ومثالاً مجسما لتناقض الأيام. بل كانت حياته هى الحياة نفسها، بنهارها المشرق وليلها المظلم ، بربيعها الضاحك وخريفها العبوس ، بقممها التى تصافح السحاب وسفوحها التى تعانق التراب . . هذه هى النظرة العابرة أو الشاعرة . التى لا تحلل ولا تعلل . وإنما تنفعل بالنتائج دون غوص فى المقدمات . وتنظر إلى الأمور بعين العاطفة وتتحسسها بنبض القلب ، من غير إرهاق لعين العقل فى تلمس ما وراء هذا التقلب والتناقض من مسوغات أو مسببات .

على أنه إذا كانت النظرة المستأنية المتعقلة تنفى التناقض فى الحياة ، وترجع كل ظاهرة إلى سببها وترد كل نتيجة إلى مقدمتها ، فكذلك حياة شاعرنا الملك السجين ، الذى انتقلت به الحياة من قاعة العرش الوضاءة إلى زاوية السجن المظلمة ، وانتزعت من يده صولجان الملك لتضع حول هذه اليد قيد السجين . . إن لهذا التقلب الذى أخذ شكل التناقض أسبابه ومسوغاته من حياة الشاعر ، كما يأتى الظلام بعد الضياء، ويعبس الخريف بعد ابتسام الربيع ! .

نشأ المعتمد فى بيت ملك . فأبوه المعتضد بن عباد ملك إشبيلية فى عهد ملوك الطوائف بالأندلس ، وجده القاضى بن عباد — من قبل أبيه — مؤسس ملك بنى عباد فى هذا الإقليم الأندلسى الكبير منذ أواخر العهد الأموى ، وضعف الخلفاء الأمويين بقرطبة عن ضبط أطراف الدولة ، مما جعل بعض حكام الأقاليم يستقلون بها عن الحكومة المركزية الأموية .

---

* نشر هذا المقال فى مجلة الهلال عدد يناير ١٩٧٣ .

وقد كان استقلال ابن عباد جد المعتمد بإشبيلية سنة ٤١٣ هـ .

أما المعتضد والد الشاعر ، فقد تولى ملك إشبيلية بعد موت أبيه سنة ٤٣٣ ، وكان جباراً مهيباً . كما كان شاعراً أيضا . وقد دعم مملكة إشبيلية ، وأحرز انتصارات كبيرة على خصومه .

وقد ولد له ابنه محمد قبيل أن يلى الملك بقليل ، سنة ٤٣١ هـ . وكان مولده فى مدينة باجة غربى الأندلس. وقد عُرف هذاالوليد الأمير بالذكاء. فلما شب — وكان أبوه المعتضد قد صار ملك إشبيلية — نشّأه على الثقافة الرفيعة، فأحب الأدب وكلف بالشعر . وقال نماذج جيدة منه منذ حداثته .

ولكن الوالد الملك حمّل الابن الفتى الأمير الشاعر مسئوليات سياسية وعسكرية قد لا تتفق مع طبيعته الفنية وتكوينه الأدبى . فقد ولاه قيادة الجيش مرة وعمره لا يتجاوز الثانية عشرة ، كما عينه حاكماً على مدينة شلْب وعمره نحو أربعة عشر عاماً سنة ٤٤٥ هـ . ولكن الأمير الشاب الفنان غلب عليه الانطلاق وعدم أخذ الأمور مأخذ الجد . وقد ساعد على ذلك التقاؤه فى تلك المرحلة المبكرة من عمره بالشاعر المتحرر المغامر ابن عمّار . فقد توثقت بينهما الصداقة ، وتقاربت المشارب ، فكانت لهما لقاءات ومجالس ، تتجاوب فيها نغمات الكئوس مع أنغام العيدان . ويتعاقب خلالها إنشاد الأشعار وترجيع الألحان .

ثم دخلت شخصية ثانية حياة الأمير ، جرفته أكثر إلى حياة الرفاهية والمتعة والإسراف فى الملذات ، التى تنفع زاداً لفنان منطلق ولكنها تضر أميراً مسئولا ، وملكاً مستقبلا. هذه الشخصية هى « اعتماد » الرُّمَيْكيَّة ، التى كانت جارية تاجر من مياسير إشبيلية يسمى « رميك » . وقد رآها الأمير فى إحدى نزهاته مع صاحبه بن عمار ، فأعجب بها ، وزاد من تعلقه بها معرفتها الشعر وقدرتها على قرضه على البديهة . فاشتراها من مالكها ثم تزوجها ، وظل مفتتنا بها محققاً كل تطلعاتها حتى ما كان يصل إلى درجة الحماقة . فقد حكوا

أنها رأت مرة بعض الفتيات الريفيات يمشين فى الطين ، فطلبت من المعتمد أن تفعل مثلهن ، فجعل لها فى حديقة القصر طينا صناعياً مناسباً من الكافور والطيوب وماء الورد . ثم خاضت اعتماد فى هذا مع جواريها . بل قيل إن المعتمد قد اختار لنفسه هذا اللقب بعد أن صار ملكا لكى تتشابه حروف لقبه مع حروف اسم حبيبته . وكان قد خلّف أباه المعتضد على الملك بعد وفاة الأب سنة ٤٦١ هـ . وقيل إنه اتخذ أولا لقب المؤيد ثم الظافر .

ومنذ تولى المعتمد الملك مال إلى سياسة المسالمة والبعد عن المتاعب ، حتى ولو كانت تلك المتاعب مما يحتمه الواجب ، كل ذلك لكى يفرغ إلى حياته ، حياة الفنان المنطلق الذى يريد من الحياة أن تكون كما يريد . . . وقد جنى الشعب الأندلسى فى إشبيلية بعض الخير العاجل من وراء تلك السياسة ، حيث خفت عنهم وطأة الحاكم التى قاسوا منها أيام أبيه المعتضد، وحل محلها تسامح ورخاء وتعاطف وأمن . . وكان الأدباء والشعراء أسعد الناس بالملك الفنان . فقد قربهم وكرمهم وجعل وزراءه وكبار رجال دولته منهم . وكان فى مقدمتهم ابن زيدون وابن عمار . ولكن طبيعة المعتمد وطريقته فى الحياة ، وسياسته فى الحكم المتأثره بطبيعته وطريقة حياته ، قد جرت عليه وعلى شعبه بعد ذلك كثيراً من الضر . .

حقيقة قد حاول المعتمد أن يقوم ببعض الأعمال البطولية من وجهة نظره أو من وجهة نظر بعض مستشاريه ، ولكن تلك الأعمال كانت فى جملتها أذى للشعب الأندلسى ووبالا عليه وخاصة. فمثلا قد استهل حكمه بتنفيذ ماخطط له والده من الاستيلاء على قرطبة عاصمة بنى جهور. فلما حاصر يحيى بن ذى النون صاحبُ طليطلة هذه العاصمة الأندلسية سنة ٤٦٢ هـ ، واستعان حاكمها عبد الملك ابن جهور بالمعتمد ، سير نحوه جيشاً ضخما حمل الذنونيين على التراجع والانسحاب . ثم انتهز العباديون الفرصة فزحفوا نحو قصر ابن جهور ،

وأجبروه على التسليم ، ثم نُفى هو وأهله . واستتب الأمر لبنى عباد بهذه الطريقة الغادرة ، التى يغلب على الظن أنها من وسوسات بعض أعوانه الخبثاء . . وقد كان الجزاء من نفس العمل تقريباً ، فقد انتهز ابن ذى النون الفرصة وعاد إلى مهاجمة قرطبة سنة ٤٦٧ وقتل سراج الدولة بن المعتمد الذى كان يحكمها من قبل والده . . حقيقة قد تمكن ابن عباد بعد ثلاث سنوات من استعادة قرطبة بجيش ضخم وبعد معركة ضارية ، وعين ابنه المأمون حاكمها ، ولكن المدينة كان مصيرها السقوط بعد ذلك فى أيدى المرابطين سنة ٤٨٤ ، كما كان مصير ابنه المأمون القتل . وهكذا فقد المعتمد اثنين من أبنائه ثمنا لهذه المغامرة .

كذلك قام ابن عباد بمغامرة أخرى كلفته الكثير ، ففى عام ٤٧١ هـ جهز جيشاً لفتح مرسية بإلحاح وزيره وصديقه الشاعر المغامر ابن عمار ، وتعاقد مع أمير برشلونة على إمداده بالجنود المرتزقة لقاء مبلغ من المال . ولكن الحملة فشلت أول الأمر ، فعاد ابن عمار إلى مرسية ثانية مستعيناً هذه المرة بمؤازرة عبد الرحمن ابن رشيق قائد حصن بلج ، فاستسلمت المدينة ، وتولى ابن عمار إدارتها من قبل المعتمد ، ولكنه كمغامر طامع أراد بعد حين أن يستقل بها ، وظهرت منه بوادر تدل على نواياه ، فما زال به ابن عباد حتى قبض عليه وسجنه فى إشبيلية ثم قتله بيده سنة ٤٧٧ هـ .

على أن سياسة المعتمد فى علاقته بالدول الإسبانية المتأخمة كانت هى الأخرى تتسم بالتردد والاضطراب ، ولا تأخذ الشكل الجاد الحازم . فقد حدث سنة ٤٧٠ هـ أن قام ألفونسو السادس بحملة على إشبيلية ملأت القلوب رعباً ، فلم يجد المعتمد سبيلا إلى رده إلا دفع الإتاوة لمدة عامين ، ثم عقد معه معاهدة تم بموجبها تزويد المعتمد بالمرتزقة الإسبان مقابل جزية سنوية .. وكان هذا التهادن مع الملك الإسبانى مما ساعد على تمكينه من مخططه فى الاستيلاء على الأراضى الأندلسية ، حتى سقطت طليطلة الحصينة فى يده سنة ٤٧٨ هـ

بعد أن ظلت قروناً تحت راية العروبة . .

وبعد سقوط طليطلة بدأ المعتمد — كغيره من ملوك الطوائف — يستشعر الخطر الإسبانى ويدرك الخطأ الذى وقع فيه بالانهماك فى اللهو ، وتبديد الجهد فى التناحر ، وغض الطرف عن العدو الخارجى . وهنا التفت إلى الشمال الإفريقى فرأى دولة إسلامية قوية ، هى دولة المرابطين التى على رأسها القائد القوى يوسف بن تاشفين . فراى — مع بقية ملوك الطوائف — أن يستنجد بهذه القوة الإفريقية الفتية — فجاء ابن تاشفين إلى الأندلس بجيش قوى . ونازل مع الأندلسيين جيش ألفونسو فى موقعة « الزلاّقة » وهزمه ، ثم غادر الأندلس بعد أن منحها قوة كان من المفروض أن يستغلها ابن عباد وغيره من ملوك الطوائف . .

ولكن سلوك ابن عباد — وغيره من هؤلاء الملوك الصغار — لم يتغير . حيث ظل بعيداً عن الجدية ومواجهة الخطر الإسبانى الذى يحاول التهام الأراضى الأندلسية العربية جميعاً . . وهنا وجد ابن تاشفين الفرصة قد حانت لانتزاع الأندلس من يد ملوك الطوائف الذين على شاكلة المعتمد ، وضمها إلى دولته فى أفريقيا . فهذا فى نظره أولى من سيطرة الإسبان عليها وضمها إلى دولتهم .

وهكذا عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس من جديد سنة ٤٨٤ هـ ، وكان قد عبر بعد سنة « الزلاقة » مرة ثانية سنة ٤٨١ هـ ولكنه لم يحسم الموقف كما حسمه فى هذه المرة الأخيرة . فقد سار إلى غرناطة واستولى عليها ، ثم وزع قواته إلى أقاليم مختلفة من الأندلس للاستيلاء عليها ، وجعل قاعدته الرئيسية مركزة للاستيلاء على إشبيلية .

وقد فقد المعتمد ابنين من أبنائه أثناء استيلاء المرابطين على إقاليم الأندلس ، وهما ابنه المأمون فى قرطبة كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، وفقد ابنه الراضى فى

رُندة . أما هو فقد تأهب للدفاع من إشبيلية واستنجد بحليفه ألفونسو الذى أمده بجيش لم يستطع الوصول إلى عاصمة ابن عباد ، بل أدركه المرابطون قرب قرطبة فهزموه . واضطر ابن عباد إلى النزول بقواته كلها للدفاع عن نفسه وعن بلده ، ولكن المرابطين كانوا أكثر عدداً وعتاداً فهزموه ، وقتلوا ابنه مالكاً بين يديه ، فاضطر إلى التسليم بعد أن قاوم قدر طاقته ، وبعد أن استبان عاقبة كل أخطائه ، فأغمد سيفه . ونزل من القصر إلى الأسر ، ووُضع فى يده القيد ؛ وسيق هو وبقية أهله ، فحُملوا فى سفائن سارت فى الوادى الكبير ، ومنه توجهت إلى طنجة فى إفريقيا ، ثم استقر المقام بابن عباد فى سجن أغمات بمراكش وظل به بقية حياته إلى أن توفى سنة ٤٨٨ هـ .

وإذا كانت هذه النهاية المؤلمة نتيجة لمقدمات من سلوك الملك الشاعر وأعماله . فهى لا تخاو مع ذلك مما يثير الإشفاق ويبعث على الأسى ، وخاصة إذا عرفنا أن الرجل لم يكن سيئاً ولا شريراً ، وإنما كان إنساناً حمل ماليس من طبيعته أن يحمله ، ووُجه إلى مسار كان من الخير له أن يسير فى غيره . فهو رجل فنان يميل إلى التحرر والانطلاق ، وإذا أخذ نفسه بأمر جاد مجهد فلا يمكن أن يكون أعباء الملك وشئون السياسة وقيادة الجيوش . وبرغم مواقفه التى لا تتلاءم مع قوة الحاكم وصلابة القائد فى كثير من الأحيان ، قد سجل التاريخ له بعض المواقف التى تشرفه كإنسان عربى .

ومما يضاعف الإشفاق على المعتمد ويثير مزيداً من الأسى لأجله . تلك المبالغة فى الأذى الذى لقيه على يد ابن تاشفين وهو سجين . فقد جُرد أولا من كل مايملك ، وحمل إلى سجنه بمراكش فقيراً معدماً ، تاركاً وراءه الثراء الضخم والملك العريض ، بقصوره العديدة وبساتينه اليانعة وكنوزه الغنية . ثم وُضع فى القيد فى كثير من الأحيان وكأنه أحد اللصوص أو السفاحين أو قطاع الطرق . وأخيراً لم يُمنح فى سجنه هو وأسرته — أو ما بقى منها — مايكاد يسد حاجتهم الضرورية :

حتى لبست بناته الثياب الممزقة، وسرن أمامه حافيات ، واضطر بعضهن إلى غزل الصوف بالأجر لنيل ما يستعان به على قسوة الحياة . هذا بالإضافة إلى فقد عدد من أبنائه فى حملة المرابطين على الأندلس ، ووقوع إحدى بناته أسيرة أثناء تلك الحرب ، ثم ابتياع تاجر إشبيلى لها، وتزويجها لابنه بعد استئذان المعتمد إجلالا لذكراه . . .

كل هذا يشعرنا بأن المعتمد الإنسان قد جنى عليه المعتمد الملك ، فقد كان — فى الحق — إنساناً فناناً لا يستحق كل تلك الآلام من العذاب الذى بلغ بحياته درجة المأساة . .

ومما يجعل مأساة المعتمد تمس القلب أكثر ، تعبيره بالشعر الجيد عن جوانبها المفعمة بالعبرة ، الجياشة بما يثير الرحمة .

فقد أثارته دعوة بعض أعوانه إياه أن يستسلم أول مقدم المرابطين : فثارت فيه النخوة الكامنة ، وانتفض يستل سيفه ويدافع عن بلده ويقول :

قالوا : الخضوع سياسة فليبدُ منك لهم خضوعْ
وألذ من طعم الخضو ع على فمى السم النقيع
إن يسلب القوم العدا ملكى وتسلمى الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطبا ع ، أيسلب الشرف الرفيع

وحين انتهى به الأمر إلى الأسر ، ونُقل إلى الشمال الإفريقى ، وصل إلى موضع كان الأهالى فيه يستسقون السماء بعد جفاف أصابهم ، فقال فى هذا الموقف :

خرجوا ليستسقوا فقلت لهم : دمعي ينوب لكم عن الأنواءِ
قالوا حقيق في دموعك مقنع لكنها ممزوجـــه بدمـــاء

ولما عانى من قسوة الأغلال في سجنه . قال معبراً عن آلامه المبرحة من عض قيده :

تَعطّفُ في ساقٍ تَعَطّفَ أرقمٍ يُساورها عضا بأنيابِ ضيغمِ
مخافة من كان الرجال بسيبه ومن سيفه في جنة وجهنم

وكان في محبسه وقيده يستثيره الانطلاق . ويهيج شجونه طيف الحرية ، فإذا رأى طائراً طليقاً غبطه على تلك الطلاقة وراح يقول :

بكيتُ إلى سربِ القطا إذْ مررن بي سوارح ، لا سجن يعوق ولا كَبْلُ
ولم تلك — والله المعيد — حسادة ولكن حنينا ، إنّ شَكْلي لها شَكْل
فأسرحُ ، لا شملي صديع ولا الحشا وجيع ، ولا عيناي يبكيهما ثكل
هنيئا لها أن لم يُفرق جميعها ولا ذاق منها البعد عنْ أهلها أهلُ
وأنْ لم تَبت مثلي تطير قلوبها إذا اهتز باب السجن أوصلصل القفل
لنفسي إلى لُقيا الحمام تَشَوّفٌ سواي يُحب العيش في ساقه خَجل
ألا عَصم الله القطا في فراخها فإن فراخي خانها الماء والظل

وسمع قمرية تنوح فهاجه نواحها ، وتذكر فجيعته وراح يقول مقارناً بين حالها وحاله :

بكت أن رأت إلفين ضمهما وكرُ مساء ، وقد أخْنى على إلفها الدهرُ
وناحت فباحت ، واستراحت بسرها وما نطقت حرفا يبوح به سر

فمالي لا أبكي ؟ أم القلب صخرة ... وكم صخرة في الأرض يجري بها نهر
بكت واحداً لم يشجها غير فقده ... وأبكي لآلاف عديدهم كثر
بني صغير ، أو خليل موافق ... يمزق ذا فقر ويغرق ذا بحر
ونجمان زينا للزمان احتواهما ... «بقرطبة» النكداء ، أو«رندة»القبر
عذرت إذن أن ضن جفني بقطرة ... وأن لؤمت نفسي فصاحبها الصبر
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معي ... لمثلهما فلتحزن الأنجم الزهر

وحين أقبل عليه العيد في سجنه ، ودخلت عليه بناته يلبسن ممزق الثياب وفي أيديهن المغزل يغزلن به للناس بالأجر ، ثارت في نفسه ذكريات العز السالف وراح يقول لنفسه :

فيما مضى كنت بالأعياد مشرورا ... فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة ... يغزلن للناس ، ما يملكن قطميرا
برزن حوك للتسليم خاشعة ... أبصارهن ، حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافوراً
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلا ... مردك الدهر منهياً ومأموراً

ومن أمارات الوفاء الذي يتسم به الشعراء الأصلاء ، تلك الرابطة التي ظلت تشد طائفة من أصدقاء الشاعر إليه وتشده إليهم ، برغم سجنه وقسوة الظروف عليه . ومن هؤلاء الشعراء : أبو بكر الداني ، وابن حمديس الصقلي ، وابن عبد الصمد .

وكانت قمة أحزان المعتمد قد تبلورت في رثائه لنفسه قبل وفاته ، وإبداعه هذا الرثاء أبياتاً باكية أوصى بأن توضع على قبره . . . وفي هذه الأبيات يقول وهو لم يزل حيا :

قبرَ الغريب سقاك الرائحُ الغادى ... حقا ظفرت بأشلاء ابن عبادِ
بالحلم ، بالعلم ، بالنُّعْمَى إذا اتصلت ... بالخصب إن أجدبوا بالرى للصادى
بالطاعن الضارب الرامى إذا اقتتلوا ... بالموت أحمرَ ، بالضرغامة العادى
بالدهر فى نقم ، بالبحر فى نعم ... بالبدر فى ظلم ، بالصدر فى النادى
نعم هو الحق حاياني به قدر ... من السماء فوافانى لميعـــاد . . .
لم أكن قبل ذاك النعش أعلمه ... أن الجبال تهادى فوق اعواد
كفاك ، فارفق بما استودعت من كوم ... رواك كُلُّ قطوب البرق رعاد
يبكى أخاه الذى غَيَّبْتَ وابلُه ... تحت الصفيح بدمع رائح غاد
حتى يجودك دمع الطل منهمرا ... من أعين الزهر ، لم تبخل بإسعاد
ولا تزال صلاة الله دائمـــة ... على دفينك ، لا تُحْصَى بتعداد

رحم الله ابن عباد وغفر له ، فقد كان فنه الشعرى من أروع الحسنات ، التى يرجى أن يُذهبن ما كان له كملك من سيئات .

أمية بن أبى الصلت الأندلسى

العبقرية العلمية والموهبة الأدبية

بين كل طوائف الأندلسيين يبرز عدد غير قليل من الأدباء الموهوبين . وقد برز بين أطباء الأندلس بخاصة أدباء مرموقون ، يمكن أن يلفت النظر من بينهم أناس بلغ بهم النبوغ فى الطب والأدب مبلغاً محيراً ، حتى لا يكاد يعرف الدارس لآثارهم وحياتهم أين يضعهم ، أفى الأطباء الأدباء ؟ أم مع الأدباء الأطباء ؟ وذلك لاتضاح النبوغ وعظمة النتاج فى الطب والأدب على السواء .

ويمكن أن نأخذ مثالا لهؤلاء الأطباء الأدباء المحيرين من أبناء الأندلس « أمية بن عبد العزيز الدانى » الذى يطلق عليه كذلك « أمية بن أبى الصلت الأندلسى » ، وهو — كما يُرى — مشتبه الاسم مع الشاعر المشرقى القديم «أمية ابن أبى الصلت » . غير أنه يفرق بينهما بإلحاق لقب « الدانى » بصاحبنا الطبيب . أو إلحاق لقب « الثقفى » بالآخر المشرقى ، فصاحبنا الطبيب الأندلسى من بلدة « دانية » الأندلسية ، على حين يُنسب الآخر المشرقى إلى قبيلة « ثقيف » إحدى الأصول العربية المشرقية . .

وقد عاش أديبنا الأندلسى الشاعر حياة حافلة بالنضال والارتحال ، موزعة بين اليسر والعسر ، فكانت حياة غنية خصبة ، مفعمة بالحركة ثرية بالنتاج! .

فقد ولد سنة ٤٦٠ هـ ببلدة دانية فى شرقى الأندلس ، ونشأ بها فى عهد ملوك الطوائف . ومعروف أن « دانية » كانت تحت حكم العامريين فى تلك الفترة ، ثم تحت حكم بنى هود ، إلى أن انتزعها المرابطون . ومعروف أيضاً

• نشر هذا المقال في مجلة الهلال عدد مارس سنة ١٩٧٣ .

أن « دانية » فى ذلك العهد كانت إحدى العواصم العلمية بالأندلس . أى أنها كانت بيئة ثقافية صالحة لينشأ بها هذا الوليد الواعد « أمية بن عبدالعزيز ». وقد تلقى بالفعل على شيوخ « دانية » أصول العلوم العربية والإسلامية . كما تلقى قدراً لا بأس به من العلوم العقلية . ولأمر ما ترك أمية « دانية » ورحل إلى إشبيلية فى عهد المعتمد بن عباد . ومعروف أنها كانت من أعظم العواصم الأندلسية ازدهاراً بالفن . و بخاصة الأدب والموسيقى . ومعروف أيضاً أنها كانت مركزاً من مراكز دراسة العلوم . و بخاصة الطب .. ومن هنا يمكن أن نتصور ما كان لتلك المدينة المزدهرة علماً وفناً من تأثير فى تكوين أمية وإنضاج ثقافته وتنو يعها.. غير أن إشبيلية والأندلس كلها كانت فى عهد قلق وضعف فى أواخر سنوات الطوائف . كما كانت مهددة بالإسبان من الشمال . وبالمرابطين من الجنوب . لهذا لم يقنع صاحبنا بإشبيلية ولا بالأندلس جميعاً . بل يمم وجهه نحو مصر ، حوالى سنة ٤٨٠ هـ ، وزاول فيها نشاطاً فكرياً وأدبياً كبيراً . غير أن الحظ خانه أثناء مقامه بمصر . فحدث ماأدى إلى سجنه نحو ثلاث سنوات بالقاهرة. ذلك أن السلطان الفعلى بمصر حينذاك كان للوزير الأفضل بن بدر الجمالى. وكان رجله فى الإسكندرية هو القاضى ابن حديد . وحدث أن جاءت إلى مياه الإسكندرية سفينة محملة بالنحاس. وقد أصيبت السفينة بعطب وغاصت فى المياه . ولما كان أميه فى الإسكندرية حينذاك . ولما كان عارفاً بالهندسة — ضمن معارفه العلمية المنوعة — فقد تكفل بتعويم السفينة من جديد وإنقاذ حمولتها، وتعهد بذلك للقاضى ابن حديد، الذى تعهد بدوره للوزير الأفضل بالقاهرة .

وأعد أمية آلات هندسية معينة . وربط السفينة بحبال خاصة ، واستخدم نحو مائة وخمسين من الرجال الأشداء فى جذب الحبال . فطفت السفينة وأوشكت المحاولة أن تنجح ، لولا أن تكاثر الناس على الشاطئ ، واشتركوا فى عملية الجذب دون نظام ، مما أدى إلى انقطاع الحبال وغوص السفينة ثانية ، وإصابة كثير من

الناس بإصابات مختلفة نتيجة لوقوع بعضهم على بعض . . وغضب القاضى ابن حديد، ووبخ أمية، فلم يقبل الإهانة . فرفع الوالى الأمر إلى الوزير الأفضل — مع ما يوغر صدره بطبيعة الحال — فأمر بالقبض على العالم الأندلسى الأديب ، وإرساله إلى القاهرة حيث سجن .

غير أن هذا الحادث وما أعقبه من سجن لا يشوه الوجود المشرف لأمية على أرض النيل . فقد تفاعل مع البيئة العلمية والأدبية بمصر تفاعلاً خصباً . فناظر العلماء ، وعلم التلاميذ . وعمل فى ديوان الإنشاء . وشارك فى شتى ألوان النشاط العلمى والفنى وخاصة الطب والفلك ، والكتابة والشعر . كما ألف أعمالا ممتازة من بينها « الرسالة المصرية » التى تحدث فيها عن كثير من عادات المصريين وتقاليدهم ، كما عرض للبيئة المصرية وكثير من علمائها وأدبائها . . كذلك من بين مؤلفاته فى مصر « الوجيز » فى علم الهيئة ، و « رسالة العمل بالإصطرلاب » . وكتاب « الأدوية المفردة » فى الطب . وكتاب « تقويم الذهن » فى المنطق ، إلى غير ذلك من الكتب . .

وفى سنة ٥٠٠ هـ — أو بعد ذلك بسنوات قليلة — ترك أمية مصر إلى تونس . حيث نزل بالمهدية . وكانت تونس حينذاك تحت حكم بنى باديس من قبائل صنهاجة . وكانت ككثير من بلاد الشمال الإفريقى مسرحاً لصراعات شتى بعضها بين القبائل الإفريقية من أبناء البلاد ، وبعضها الآخر بين الوجود العربى الإسلامى على تلك الأرض ، وبين العدوان « النورماندى » والصليبى عليها . .

ومع ذلك يبدو أن أمية رأى أن الشمال الإفريقى أنسب لإقامته من مصر ، وبخاصة إذا كانت مصر — فى تلك الآونة — لم تمنحه السلام الذى كان يحلم به . وهكذا اتخذ أمية « تونس » مستقراً ، وعاش فى ظل ثلاثة من حكامها الصنهاجيين ، وهم : يحيى بن تميم ، وعلى بن يحيى ، والحسن بن على .

وفى هذا المستقر الإفريقى ، أكمل أمية ماكتب له من عمر ، ثم مات سنة ٥٢٩ هـ أو نحو هذا التاريخ . كما أكمل مسيرته العلمية والفنية والأدبية ، وأنجز بقية مؤلفاته ، وأعطى هذا العطاء الفنى المنوع المحير ، لأننا أمامه لانتساءل فقط : أكان أمية أديباً يهوى الطب ، أم كان طبيباً يهوى الأدب ، بل نتساءل — ونحن فى دهشة بالغة — أكان مهندساً أم فلكياً أم فيلسوفاً أم مؤرخاً أم موسيقياً أم طبيباً أم أديباً ؟؟ فقد أثر عنه نشاط موفور ونتاج خصب فى كل ميدان من تلك الميادين . حتى أوقع فى الدهشة البالغة ، من عبقريته الفذة ، وموهبته النادرة المتعددة الجوايب . .

إن اجتماع الموهبة الأدبية مع فرع واحد من فروع المعرفة — كأن يكون الرجل مهندساً وأديباً ، أو طبيباً وكاتباً — مما يدعو إلى الإعجاب . فماذا يمكن أن يقال فى هذه الشخصية العربية العجيبة التى مارست كل تلك العلوم والفنون ، على مابين بعضها وبعض من تناقض أو مايشبه التناقض فى أقل تقدير ؟ ! .

فى مجال الهندسة أثر عنه كتاب يسمى « الوجيز » وآخر يسمى « الاختصار » يقال إنه اختصار لكتاب « إقليدس » . . ولا يمكن أن ننسى فى هذا المجال ، تلك المحاولة التى سجلها له التاريخ . وهى محاولة تعويم سفينة غارقة فى مياه الإسكندرية ، فهى محاولة — رغم انتهائها بالفشل — قد نجحت أول الأمر واستطاع بها أن يجعل السفينة تطفو ، بفضل مااستخدم هذا المهندس العربى من علمه وأدواته . ولولا ماأحاط بالمحاولة من أخطاء خارجة عن إرادته ساعة التنفيذ ، لنجحت وسجلت سبقاً كبيراً لهذه الشخصية العربية العبقرية ! .

وفى مجال الفلك خلف لنا أمية رسالة فى « العمل بالإصطرلاب » منها نسخة مخطوطة فى برلين وأخرى فى ليدن وثالثة فى باريس . كما خلف أيضاً صحيفة جامعة تقوّم بها جميع الكواكب ، كما نص على ذلك « بروكلمان » فى ملحق تاريخه المشهور . كل هذا بالاضافة إلى نص جُل من أرخوا لحياة

أمية على أنه كان من كبار العلماء فى الفلك . هكذا يقرر الثقاة من المؤرخين بعبارات مختلفة ، كالسيوطى والذهبى وغيرهما .

وفى مجال الفلسفة والعلوم العقلية قد خلف لنا أمية كتابه «تقويم الذهن» وهو فى المنطق . وقد نشره المستشرق الإسبانى « جونثالث بالنثيا » سنة ١٩١٥ . وقد تكون له كتب أخرى تتجاوز المنطق إلى فروع أخرى من فروع الفلسفة . فقد سجل جُلُّ من كتبوا عنه من القدماء مايؤكد اشتغاله بالفلسفة . حتى أصبحت هى أو الحكمة من بين مايخلع عليه من ألقاب . فقد وصفه ابن سعيد فى كتابه « المغرب » بصفة فيلسوف . ومثله فعل ابن العماد فى كتابه « شذرات الذهب » . . أما ابن خلكان فيقول عنه فى كتابه « وفيات الأعيان » : إنه كان عارفاً بفن الحكمة . .

وأما فى مجال التاريخ فقد أثر عنه كتاب اسمه « الديباجه فى مفاخر صنهاجة » وعن كتابات أمية التاريخية ينقل عدد من المؤرخين التالين له مثل : ابن الأبار ، وابن عذارى ، وابن الخطيب .

وأما فى مجال الموسيقى فقد ألف رسالة لعلى بن يحيى بن تميم بن باديس ، وهى رسالة تقول دائرة المعارف الإسلامية عنها إن أصلها العربى قد فقد ، وبقيت لها ترجمة عبرية محفوظة فى باريس . وبالإضافة إلى هذه الرسالة يذكر المؤرخون أن أميه كان من أعلام الموسيقى علما وعملا . بل يذكر ابن سعيد أن أهل إفريقية قد أخذوا عن أمية الألحان التى هى الآن (أى فى القرن السابع الهجرى) بأيديهم . .

وأما فى مجال الطب فقد برز أمية ربما أكثر من تبريزه فى أى علم آخر . ويبدو أنه نبغ فيه نبوغاً ملحوظاً جعل ابن سعيد يقول عنه : « قد بلغ فى صناعة الطب مبلغاً لم يصل إليه غيره من الأطباء » . وقد ألف أمية فى الطب عدداً من الكتب منها : « الأدوية المفردة » ، ومنها أيضاً كتاب « الانتصار لحنين

ابن إسحاق » ، وهو كتاب دافع فيه أمية عن حنين وانتصر له من عالم آخر ، هو على بن رضوان .. وفى «الرسالة المصرية» إشارات طبية بارعة تدل على تمكن أمية من مهنة الطب فى صورة متطورة ، فهو مثلاً يوجب على الطبيب الإلمام بثقافات أخرى تعينه على عمله الإنسانى ، ويجعل فى مقدمة هذه الثقافات العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والموسيقى . كما يدعو الأطباء إلى الاهتمام بالروح المعنوية للمريض ، حتى ليدعو إلى إلحاق بعض رجال الفكاهة بالمستشفيات ، ليرفهوا عن المرضى وينشطوا نفوسهم ويساعدوا بذلك فى عملية العلاج . .

وأما فى مجال الأدب فقد تألق أمية كما يتألق أى أديب موهوب محترف بل عمل فى جل فروع الأدب والمعرفة فى عصره ، فكتب وشعر ، وتنوعت كتاباته كما تفرعت فنون شعره . بل إنه عمل كاتباً رسمياً فى ديوان الإنشاء بمصر ، وخلّف ديواناً شعرياً كبيراً . .

ومن أهم مابقى من آثاره الأدبية نثراً « الرسالة المصرية » . ومن أهم مابقى من آثاره الشعرية ، مجموعة ضخمة حفظها العماد الأصفهانى فى كتابه المعروف « خريدة القصر » . أما ديوانه الشعرى نفسه فلا يزال غير معروف المصير .

ومن خلال مابين أيدينا من نثر أمية نستطيع أن نقرر أنه كان ناثراً متمكناً مجودا ، ونثره يميل إلى الجزالة مع اليسر ، وإلى التجويد مع الابتعاد عن التعقيد . وهو نثر توشيه الزينة البلاغية المتقنة غير النابية ولا المفتعلة ، كما تتخلله اقتباسات واستشهادات تدل على سعة الإلمام بالتراث ، وقوة المنشئ على استغلال محفوظه العظيم . ولعل النموذج التالى يوضح سمات نثر أمية وهو سطور من رسالته المصرية يوضح فيها سبب ارتحاله عن الأندلس قائـــلاً : « كنت إبان عصر فيه الشباب مونق ، وغصن الصبا مورق ، إذ لمتى مسودة ولماء وجهى رونق ، ممن

سامحه الدهر بغفلة من غفلاته ، وتجافى له عن غفوة من غفواته ، فعاش آمن السرب ، سائغ الشرب ، لا يفزع من أدب يرود رياضه ، ويرد حياضه ، إلا إلى طرب يعمر ميدانه ، ويسحب ذيوله وأردانه . ثم تلون فقلب لى ظهر مجنه ، وسقانى دردى دنه ، فتدارك ما أغفله ، واسترد ما بذله . واضطر إلى مفارقة الوطن والخروج عن العطن . فتماسكت إشفاقاً من مفارقه أول أرض مس جلدى ترابها ، وشدت على التمائم بها . وجاءت أمور لا تطاق كبار ، فلما لم يمكن القرار ، ولم يبق إلا الفرار ، قلت : ليس لى إلا أن أرمى بنفسى كل مرمى ، وأطرحها كل مطرح .

لأبلغَ عذرًا أو أنال رغيبـــة ومُبْلِغُ نفسٍ عذرها مثل منجح

وسكنتُ إلى البيت المشهور :

تلقّى بكل بلادٍ إن حللت بها أهلا بأهل وأوطانا بأوطـــان

ومن خلال مابين أيدينا من شعر أمية نستطيع أن نقول : إنه كان شاعراً موهوباً مثقفاً متمرساً يقول الشعر مفتنا فيه . وقد قاله فى جل الأغراض المعروفة. وكان يؤثر الاتجاه المحافظ الجديد ، الذى سبق إليه من الأندلسيين ابن دراج ، ومن المشارقة البحترى ، والذى يمثل المتنبى قمته الفنية فى الشعر العربى القديم كله .

على أن أمية كان يسير بشعره أحياناً فى الاتجاه المحدث ، الذى راد إليه فى المشرق الشاعر العباسى أبو نواس ، ثم انتقل إلى الأندلس ، فكان من أعلامه — قبل أمية — الشاعر يحيى الغزال .

وكان أمية — كأكثر الشعراء — يميل إلى الأخذ بالاتجاه المحافظ الجديد ،

حين يكون الموضوع الشعرى أقرب إلى المحافظة أو الجدية ، أو حين يكون الموقف يحتم الوقار . أما حين يكون الموضوع من تلك الموضوعات التى ألف المحدثون الخوض فيها كالغزل والدعابة والزهد ، أو حين يكون الموقف بعيداً عن اعتبارات الوقار ودواعى الجد ، فإن أمية كان يجنح إلى الاتجاه المحدث . . وهكذا نجد أسلوبه يميل إلى الجزالة وعلو الرنين وفخامة الأداء ، حين يأخذ بالاتجاه المحافظ ، على حين نجد أسلوبه يميل إلى السلاسة وهمس الموسيقى و بساطة الأداء ، حين يتجه وجهة الشعراء المحدثين . .

على أن شعره عموماً يتسم بالوضوح والبساطة والغنائية ، كما تنعكس عليه أحياناً ثقافته المنوعة ، فتتناثر هنا أو هناك كلمات أو معان طبية أو فلسفية ، أو نحو ذلك مما مردّه إلى الميدان العلمى الذى كان أمية فارساً من فرسانه الكبار .

ولعل من أعذب شعر أمية ماقاله فى الحكمة معبراً عن تجارب السنين واستشعار حقيقة الزمان والحياة والنفس ، وما تمتلىء به تلك الحقيقة من أسى ومرارة ولوعة . . ومن ذلك الشعر الحكمى قول أمية فى الدنيا :

تضايقنا الدنا ونحن لها نَهْبُ ... وتُوسعنا حربا ونحن لها حَرْبُ
وما وهبتْ إلا استردت هباتها ... وجدوى الليالى — إن تحققتها — سلبُ
نؤمل أن يصفو بها العيش ضلة ... وهيهات أن يصفو لساكنها شِرْبُ
ألا إن أيام الحياة بأسرها ... مراحل نطويها ونحن بها ركب

ومن شعره الحكمى أيضاً قوله فى الناس :

ولم يَبْقَ فى الباقين حافظ خلة ... فعش واحدا ماعشت تَنْجُ وتسلم
فلست ترى إلا صديقا لموسر ... حسودا لمجدود عدوا لمعدم
وكنتَ إذا استبدلت خلا بغيره ... كمستبدل سِرحان قفر بأرقم

فجانبهم ما استطعت واقبل نصيحتى ومن لم يطع يوما أخاالنصح يندم
فإن لم يكن بد من الناس فالقهم ببشر وصن عنهم حديثك واكتم

ومن شعره فى الصمود أمام متاعب الناس والزمان قوله :

يارُبَّ ذى حسَد قد زدته كمدا إذ رام ينقص من قدرى فانقصا
فإن رَخُصْتُ ولم أُنفَق فلا عجب للفضل فى زمن النقصان إن رخصا
وإن حُبِستُ فخير الطير محتبس متى رأيت حداة أودعت قفصا

ومن هذا اللون المنبىء عن خبرة ومعرفة بالدنيا والناس ، وصمود برغم كل شىء قوله :

متى صفت الدنيا لحر فأبتغى بها طيب عيش أوخلوى من الحزن
وهل هى إلا دار كل ملمة أمضُّ لأحشاء اللبيب من الطعن
وإن هى لانت بعد ذلك فاخشها فإن أشد الطعن طعن القَنَا اللدن

وواضح مافى شعر أمية من عاطفة حزينة وتشاؤم جريح .. وليس من الصعب تفسير ذلك ، فأمية قد عانى كثيراً فى حياته ، ولقى مصاعب جمة فى مسيرته الطويلة حتى لقد قسم عمره بين أقطار ثلاثة : الأندلس ومصر وتونس ، بل قد قاده حظه العاثر إلى السجن كما عرفنا ، ولم ينل كل مايستحق من تكريم لقاء علمه الغزير وفنه الرفيع ، بل لم ينل بعض حقه . ومن هنا لانعجب لهذه النبرة الحزينة فى شعره ، لأنها تعبير صادق عن آلام حقيقية ، وتصوير دقيق لتجارب فعلية . .

ولأن عاطفة أمية أقرب إلى الحزن ، وأدنى إلى الأسى ، قد كان أقدر على على التعبير عن التجارب الحزينة . ومن هنا برع فى غرض شعرى كالرثاء .

ولذا نراه يقول فى أمه هذا الشعر الصادق الذى ينفذ إلى أعماق القلوب :

وأرسل طرفا لا يراك فأنطوى ... على كبد حرّى وقلب مكلم
وما أشتكى فقد الصباح لأننى ... لفقدك فى ليل مدى الدهر مظلم
ومالِيلُ مَنْ وارى التّرابُ حبيبه ... بأقصر من ليلِ المحب المتيم
فكم بين راجٍ للإياب وآيس ... وأين جميل فى الأسى من متمم

وواضح فى هذا البيت الأخير أثر ثقافة الشاعر الأدبية والتاريخية ، فهو يضرب مثلاً لفاقد من يحب ولكن مع رجاء اللقاء ، بجميل بثينة ، الذى افتقد صاحبته لكن على أمل اللقاء ، كما يضرب مثلا لفاقد من يحب لكن مع اليأس الكامل من أى لقاء فى الدنيا بمتمم بن نويرة ، الذى فقد أخاه مالكا ، وكان لفقده أشد الوقع على نفسه وأقساه .

وفى أبيات أخرى نرى أمية يقول رائياً صديقاً :

سوابقُ عَبرتى سحى وفيضى ... وإن تغض الدموع فلا تغيض
رمى حد الردى من كان منى ... بمنزلة الشفاء من المريـــض
وكم لاقى الردى بطعان سمر ... وشد سوابق وقراع بيـــض

وليس يخفى تأثر الشاعر بحرفته كطبيب ، حيث ذكر (الشفاء) و(المريض) وجعل إحساس المريض بالشفاء هو ذروة الإحساس الحبيب . .

ومما يعكس ثقافة أمية – أوجانباً منها – قوله فى الإصطرلاب :

جرم إذا ما التمست قيمته ... جل عن التبر وهو من صُفُرِ
مختصَرٌ وهو إذ تفتشـــه ... عن مُلَحِ العلم غير مختصرِ

يحمله وهو حاملٌ فلكـاً لو لم يَدُرْ بالبنان لم يَدُر
مسكنه الأرض وهو منبتها عن جل مافى السماء من خبر

ومن بديع شعر أمية وصفه لمظاهر الطبيعة ، وذلك مثل قوله فى روضة :

خُضرُ خمائلها ، رزق جداولها فالحسن مؤتلف فيها ومختلفُ
دوح وظل يالذ العيش بينهما هذا يرف كما تهوى وذا يرف
يجرى النسيم على أرجائها دنفا وملؤه أرج يُشفى به الدنف
غريرة من بنات الروض ناعمة يثنى معاطفها فى السندس الترف

وقد سجل أمية فى بعض أشعاره جانباً من العادات المصرية فى الاحتفال بالنيل . كقوله فى مهرجان توقد فيه الشموع على صفحة النهر الخالد :

كأنما النيل والشموع بـــه أفق سماء تألقت شُهُبـا
قد كان من فضة فصيره تَوَقُّدُ النارِ فوقه ذهبـــا

وحتى هنا يمكن أن نستشف انعكاس ثقافة الشاعر الفلكية ، والطبيعية والكيماوية على شعره ، تلك الثقافة التى أثرت الصورة الشعرية ومنحتها حيوية لاتخفى .

وبعد ، فهل عرف تاريخ الفكر الإنسانى كثيرين من أمثال أمية بن عبد العزيز الدانى الاندلسى ، فى تنوع معارفه وتشعب مواهبه ؟ لا أظن ، فهو واحد من تلك الفلتات العبقرية التى تصنعها السماء أشبه بالمعجزات ، وهيهات أن تتكرر كثيراً هيهات ! .

انظر مراجع المقال : الأعلام للزركلى ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، والمغرب لابن سعيد ، وخريدة القصر للعماد الأصفهانى ، والرسالة المصرية لابن الدمنت أمية بن عبد العزيز ، وطبقات الاطباء لابن أبى أصيبعة ، وشذرات الذهب لابن العمـاد الصنبلى ، والبحث الجـامعى الذى أعده الباحث السيد السيد / عبد الله العونى ، وهو بحث نال به صاحبه درجة الماجستير من كلية دار العلوم — جامعة القاهرة .